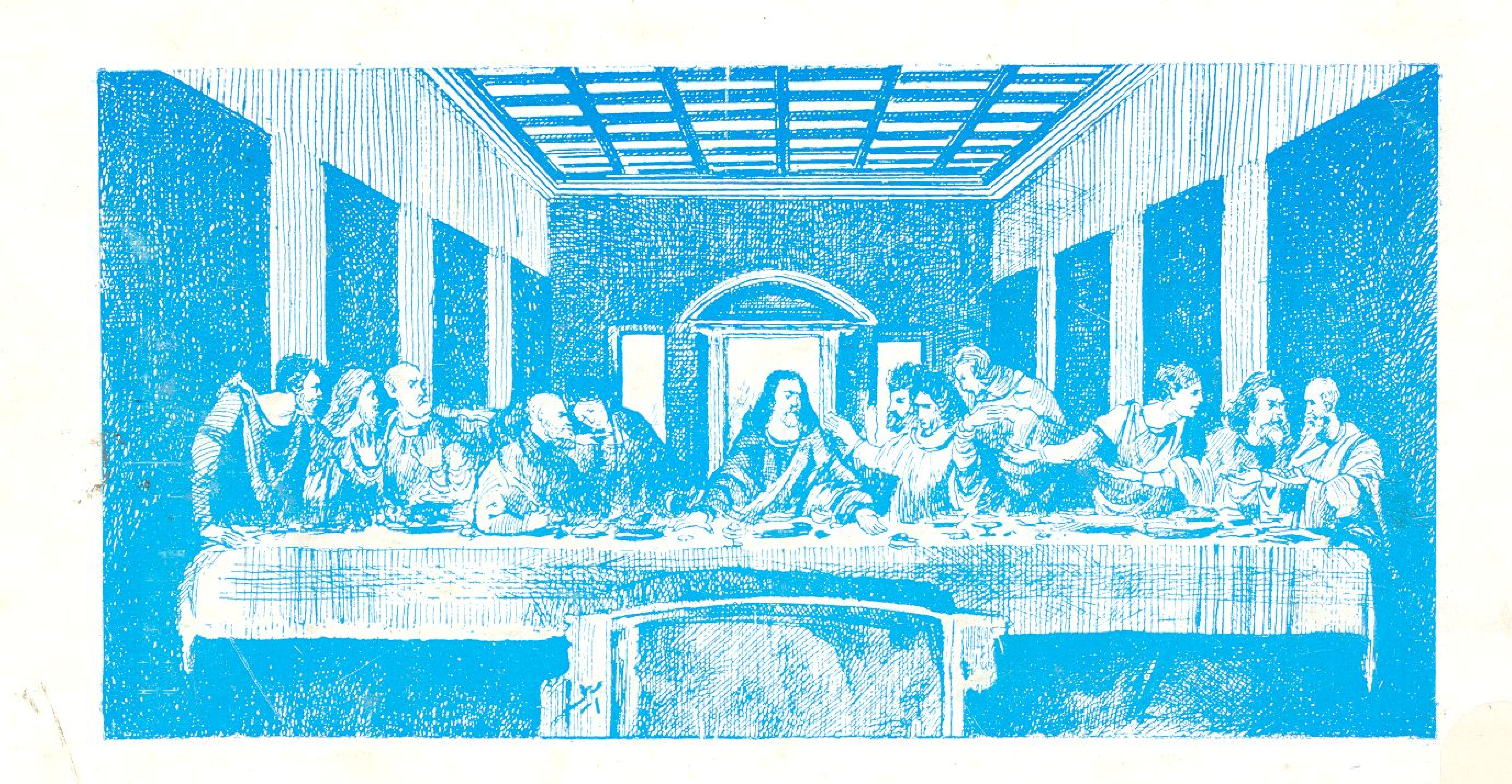
للكاتب الكبير
الأستاذ ثروت أباظة
مع خالص الود والتقدير

على مائدة المسيح



بقلم

الدكتور نظمي لوقا

مكتبة غريب



بقلم

الدكتور نظمي لوقا

مكتبة غريب

الى السائرين فى الظلمة

ومن يلوح لهم ـ من انفسهم ـ فجر جديد ٠

وأيضـا الى :

« محمد محمد محروس » الذى نزل عن احدى كليتيه كى تعيش بها « جوليا عبد السيد » ، فكان تجسـيدا حيـا لمثـل « السـامرى الصالح » ، ذلك المثـل الشرود الذى ضربه السـيد المسيح للبر الصحيح ٠٠٠

دكتور نظمى لوقا

مصر الجديدة

تعليق على الكتاب

كتب التعليق

الأنبا غريغوريوس

أسقف عام الكنيسة الأرثوذكسية

للدراسات العليا والثقافة القبطية

والبحث العلمي

وكلمة من المؤلف

بين يدى هذا التعليق

كلمة من المؤلف بين يدى هذا التعليق

جاءتنى هذة الرسالة الكريمة من الحبر الجليل والزميل القديم فى دراسة الفلسفة ، ولئن كان منهجى فى هذا الكتاب — أيضاً — منهج العقل المحايد الموضوعى ، إلا أنه يسر رجل الفكر دائما أن يجد نتائج منهجه الموضوعى متفقة مع نتائج الإيمان الذاتى ، الذى أشارك فيه نيافة الأنبا غريغوريوس تمام المشاركه . وابهج ما يكون لقلب الكاتب أن يرى العقل المحايد والدين على وفاق فى نتائج دراسته الموضوعية .

وسيلمح القارىء الفطن فى ثنايا تعليق الحبر الجليل تليمحا إلى موضوعات كتب سابقة للمؤلف . وأنى بمنهجى الموضوعى أرى حرية إبداء الرأى فيما اكتبه حقاً مطلقاً لكل إنسان أيا كان رأيه . وناهيك بمفكر عريق وحبر جليل كالأنبا غريغوريوس حين يتكلم من منطلقة الدينى ، وهو العلامة والحجة الثبت !

والخير العام بالمنهج الموضوعى ما أريده دائما ، أيا كان ما أكتبه. ولست أدعى العصمة لنفسى فى أى شىء مما كتبته على مدى الاحدى وأربعين سنة التى مارست فيها الكتابة حتى يومنا هذا . وإنما أنا مجتهد بالرأى يخطىء ويصيب . والعصمة لله وحده .

. . . وسلاما أيها القارىء ،

دكتور نظمى لوقا

التعليق

هذا الكتاب عظيم وثمين وجميل . يفيض إيمانا وحبا وعلما . فيه تقوى ، وفيه أدب روحى : أدب القلب والنفس والروح ، وأدب الفم والقلب واللسان .

الكاتب المؤلف أستاذ فى الجامعة ، يتتلمذ عليه طلبه العلم فى الفلسفة ، لكنه فى هذا الكتاب تلميذ للمعلم الأعظم ، والحكيم وحده ، يسوع المسيح رب الأرباب ، وملك الملوك ، وإله الحكمة والعلم . . .

جلس المؤلف « على مائدة المسيح » ، ووجد صنوف الطعام شهية جداً ، واكتشف سر قوتها ، وقوة فاعليتها ، وفاعلية أثرها ، وآثار فوائدها ، وفوائد عملها فى الفرد وفى المجتمع ، فى الحياة الدنيا ، وفى الحياة الأخرى ، وبهر بسموها وشرفها وأمتيازها ، كما لم يبهر من قبل بتعليم أو طعام روحى وعقلى إقرأه أو درسة عند فيلسوف أو حكيم أو معلم أو قائد من قادة الفكر والروح . فأخذ يغترف بنهم الجائع إلى نوع من الطعام فريد وعجيب ، فأكل حتى سكر من الأكل ، وصعد روح الطعام إلى عقله ، فصرفه عن كل ماعداه ، وإذا به يتحرك لسانه بلغة جديدة ، يحسبه كل من يسمعها أنه إنسان آخر ، فهو غير ما عرفوه من قبل . . فى هذا الكتاب يتكلم الأستاذ الدكتور نظمى لوقا بأسلوب المتصوفة ، وبلهجة الروحانيين الواصلين . وبعد أن أكل وشرب لنفسه عزّ عليه أن

يكون أنانياً يطلب الخير لنفسه وحده ، فرأى أن يكتب هذا الكتاب الثمين ، مرشداً وموجها ومنبها إلى ما فى تعاليم المسيح له المجد من عمق وسمو وبناء للانسان حتى يحيا مثال المسيح ، وعلى صورة الله ومثاله .

أنى أهنىء المؤلف على كتابه القيم ، وعلى المبادىء المثلى التى دعا إليها ودافع عنها ، والتى كتب عنها مستقيا أياها من النبع الحلو الصافى ، الذى شرب هو منه ، وعب لروحه منه عبا بشغف الروح العطشى إلى هذا النوع الفريد والمنفرد عن كل نبع آخر .

على أن الأستاذ المؤلف أقنعنى ما كتب بمدى ما يتوفر عليه وتوفر له من قراءة للكتاب المقدس ، قراءة متأناه ، مع الربط بين النصوص المتفرقة فى مواضع شتى من أسفار الوحى المقدس ، ربطا محكما اشهد بعمق استيعابه لما قرأ ، وترجم لهذا كله بأسلوب رصين لايتوافر إلا لمن ملك ناصية الآدب العربى .

مرة أخرى أهنئ الأستاذ الدكتور نظمى لوقا بكتابه ، وأهنئ كل قارئ لهذا الكتاب بما يجنيه من لذه روحيه ومتعة عقليةوفوائد أبدية . وأهنئ المكتبة العربية التى كسبت بهذا الكتاب إضافة جميلة لها أصالتها وحلاوتها حاضرا ومستقبلا .

والله ولى التوفيق ؟

الأنبا غريغوريوس

أسقف عام البحث العلمى والثقافة القبطية

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

هذا بيان للناس

من مفكر مسيحى العقيدة الى قرائه

على اختلاف عقائدهم

المنهج العقلى موضوعى محض ، والإيمان الدينى ذاتى محض .

فحينما يتصدى الكاتب العقلى لموضوع – وإن كان هذا الموضوع عقيدة من العقائد – فواجبه العقلى أن يكون موضوعيا فى كتابته عنه ؛ وبمعزل عن عقيدته الذاتية ، فلا يحكمها فى موضوعه ، على نحو ما يتجرد القاضى من كل عواطفه وقناعاته الذاتية عندما يتصدى للحكم فى قضية ، فلا يصدر فى بناء حكمه إلا عما ينطق به مضمون أوراق الدعوى مما يثبت ثبوتا موضوعيا ، بصرف النظر تماما عن اعتقاده الذاتى .

ولم أقصر فى نشر هذا والتنبه إليه فى كتب سابقة سنة ١٩٦٠ ثم فى كتابى «محمد فى حياته الخاصة» (طبع دار الهلال سنة ١٩٦٩) و «أبو بكر» (طبع كتب الهلال سنة ١٩٧٠) لنفى ما عشش فى أذهان بعض الناس من الأوهام فى هذا الصدد .

فحين يكتب المفكر الموضوعى فى عقيدة تخالف عقيدته الخاصة ، كما هو الحال فى مؤلفاتى عن محمد وسائر الموضوعات الإسلامية ؛ يجرد المؤلف نفسه من التحامل ويلزم الحياد التام ويعزل عقيدته ويلتزم أمانة العرض والتحليل العقليين الموضوعيين بلا نقصان ، ولا يكون فى هذا أى انتقاص من إيمانه الذاتى .

وكذلك حين يكتب مثل هذا الكاتب فى عقيدة هى عقيدته

الخاصة — كما هو الحال فى كتابى هذا — فعلية أن يجرد نفسه من التحيز الذاتى ليكون موضوعيا إلى أقصى حد مستطاع .

وفيما يلى نص التنبيه الذى نشرته فى صدر الكتابين المذكورين آنفا (عن محمد وعن أبى بكر) منذ سنوات تحريا لنفى كل لبس لدى قرائى المسلمين والمسيحين على السواء :

تنبيـه

مؤلف هذا الكتاب مسيحى المولد والمعتقد . . .

وما كنت بحاجة إلى هذا التنبيه — الذى يغنى عنه اسمى — لولا أن نفرا من الناس ذهب ظنهم إلى أن إنصاف عقيدة من العقائد — أو إنصاف أقطابها — لا يمكن أن يصدر إلا عن شخص يدين بالعقيدة التى يدفع عنها الافتراء ، وبالتالى لايدافع بالضرورة عن الإسلام ورجاله أو ينصفه وينصفهم إلا مسلم .

وهذا ظن باطل !

فليست كتبى هذه كتبا دينية فى جوهرها ومنهجها وغايتها الاصيلة ، وإن عالجت أمورا متصلة بالدين . فالغرض الأول منها الحث على نزاهة العقل والضمير بصفة عامة ، والنظر فى كل الأمور نظرا موضوعيا مبرءا من التحيز والتحايل . بحيث يكون التفكير الإنسانى أشبه بما يدور فى معمل التحليل الكيماوى : لاتتأثر نتيجة تحليل الدم إلا بالعناصر التى يتكون منها هذا الدم فعلا ، ولادخل فى هذه النتيجة لكون قطرات هذا الدم لذى قربى أو لأبعد البعداء .

وهذه النزاهة الموضوعية أسمى منهج عقلى متاح للبشر . وهى أشق ما يكون حين يتصل الموضوع بالعواطف الشخصية ، ولاسيما المعتقدات ، لأن التجرد من هذه المؤثرات الذاتية جد عسير .

لهذا السبب تعمدت البحث فى الإسلاميات ، جاعلا من هذا

الموضوع نمطا للمنهج العام الذى أدعو إليه . وليكون حجة ومثلا على الموضوعية المترفعة عن التحيز .

وإذا كان المنهج الموضوعى يسمح للدارس بغير اعتراض أن يكتب عن الكواكب البعيدة من غير أن يكون من سكانها ، وعن المعادن من غير أن يكون ضربا من الحديد أو النحاس ، وعن السيارات من غير أن يكون سيارة ، فأى عجب أن يكتب بهذا المنهج الموضوعى عن الإسلام ورجاله من ليس فى عداد المسلمين؟

ألا إن الإنصاف النزيه أثمن فضائل الإنسان . وهو أجدر أن تتصف به نظرتنا إلى الأمور كافة ، بما فى ذلك الأديان التى ندين بها أو يدين بها سوانا . . .

وفى مرجوى أن يقرأ القارئ صفحاتى بمثل الروح الذى كتبت به .

وسلام على الصادقين . . .

دكتور نظمى لوقا

فأنا بوضوح تام لست فيما أكتب مبشرا ولا داعيا لأى عقيدة أكتب عنها . وإنما أنا باحث ودارس موضوعى فحسب ! ولئن كنت بإيمانى الذاتى لا أجد نفسى إلا فى المسيحية ، فأنا بعقلى الموضوعى أقدر لغيرها من العقائد مزاياها الموضوعية .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

كلمة فى المنهج

من أجل إنسان أفضل تكلم السيد المسيح .

ومن أجل الإنسان الأفضل أكتب هذه الصفحات .

والانسان المقصود فى هذا المقام هو الانسان الذى نعيش ظروفه وآزماته فى أيامنا هذه ، وليس بالضرورة الانسان الذى كان على أيام المسيح على الأرض . فمن روح تعاليمه نستلهم صورة الانسان المرجوة فى زماننا ونستمد العون على أوعار طريقنا ومزالقه ، على مستوى الفرد ، أو على مستوى الجماعة . فلا تخلو صورة الانسان بعامة من جانب يخص آحاد الناس خالين بأنفسهم ، ومن جانب يخص صلاتهم بغيرهم ، على تفاوت الجماعة البشرية فى السعة والضيق من أصغر صور الازدواج إلى أضخم صور الرابطة البشرية أو الكونية بإطلاقها وشمولها .

فدراسة تعاليم المسيح فى هذا الكتاب ليست مقصودة من حيث هى ، بل توسلا إلى صورة الانسان الأفضل على هداها .

ثم هناك — بعد هذا — دراسة ودراسة !

أو — إن شئت — هناك دراسة فحسب ، وهناك دراسة وزيادة.

الدراسة قد تقف عند الظاهر ، وتناقش الأمور من الخارج .

أما الدراسة التى نتغياها فمن الداخل تتكلم . لأنها تتجاوز

الخارج إلى المعاناة الحية ، فهى لهـذا « تقمص » يفيض بالصراع والحوار .

وبين هذه الدراسة وتلك مابين الحفرية المتحجرة والكيان الحى ..

وما نحن بصدده فى مرجونا أن يكون كياناً حيا ... وليس من همنا أن يكون دراسة من قبيل الوقوف على المنازل والآثار لقياس أبعادها وتحديد أعمارها وعناصر معمارها ..

وتحقيقاً لهذه الغاية « نعيش » التعاليم عن طريق المعاناة الفكرية والنفسية ، ونعرض على ينبوعها الحى أزمات جيلنا . فنحن إذن نعيش هذه المشاعر والمعانى كى نجلوها للناس حية فى زماننا نحن ، فإذا بها مدد لنا وينبوع حى ، يموج فى داخلنا وينبض فى أفعالنا ووجداننا ، يحيا بنا . وفينا . ونحيا به .

إن غاية الأمر فى دارس النصوص لذاتها أن يحولها متحفاً للعلم ، أو معرضاً للفن ، مهما يكن من أمره فهو مزار ، يؤمه طالب معرفة أو ناشد طرافة أو اعتبار .

أما من يحياها ، فهى كيانه فى مصبحه وممساه . وشتان الكيان والمزار ... !

الألم — مثلا — يدرسه الدارسون بمقاييس الشدة الكهربية فى الأعصاب . أما من يعانون الألم فيعرفونه المعرفة المباشرة التى لا تترجمها الأجهزة والمختبرات . كذلك الحال فى السرور ، وفى كل ما يتصل بالحياة الحية — إن جاز هذا التعبير .

وقد يهز العلم رأسه متشككاً فى كل ما لا يقاس بمقاييسه . ولكن الحياة أيضاً تهز كتفيها ... فهى الأصل ، وهى الغاية ..ومن أجلها خلق العلم ، والذهن ... والعكس غير صحيح !

من أجل الحياة أولا وآخراً ..

من أجل الانسان الحى — هنا والآن — نعيش هذه التعاليم . وفى هذا جانب من الفن . وجانب من الفكر . وجانب من الوجدان يكتمل باجتماعها ذلك الكيان النابض الذى ننشده ، وانه لكيان يموج بالصراع والحوار : صراع الفكرة المعاشة ، لا محاورة الذهن البارد والحروف الصماء ...

بهذا سنأخذ أنفسنا

وعند قسطاسه يكون حسابنا ...

* * *

طريقـــان شتى

امـــامك فانظـــــر أى نهجيك تنهــــج
طريقـــــــان شتى : مســـتقيم واعوج
ابن جريج الرومى

من الثمرة الى البذرة

أبرز ما تدرك به آثار دعوة من الدعوات مقدار ما أحدثتة من تغيير فى السلوك ، لابتغاء السلوك الجديد على « مبادىء » و « قيم » تختلف عما كان معهوداً من قبل .

ومن هنا تأتى خطورة المغزى الذى تنطوى علية الأخلاق — بمعناها العميق — فى التعرف إلى قيمة الدعوات الكبرى فى المجال الإنسانى سواء فى ذلك دعوات الأديان . أو دعوات الفلاسفة والمصلحين : حيث يشترك أولئك جميعاً فى السعى إلى هدف واحد فى مجال واحد ، هو هدف الارتقاء ببنى الانسان .

وإلى القيمة القصوى للسلوك يشير السيد المسيح بصريح النص الوارد فى الفصل الثانى عشر من إنجيل متى :

— اجعلوا الشجرة طيبـــة يأت ثمرها طيبا . واجعلوا الشجرة خبيثة يأت ثمرها خبيثا (متى ١٢ : ٣٣)

ونسأل نحن لماذا ؟

فيجيب السيد المسيح فى ذلك الموضع على الأثر :

— لأن من الثمر تعرف الشجرة .... والمرء الصالح من كنزه الصالح يخرج الصالحات . والمرء الخبيث من كنزه الخبيث يخرج الخبائث (٣٤ و ٣٥) .

من الثمر تعرف الشجرة .

هذا هو المبدأ العام الذى يتخذ أساساً للتقويم . وهو مبدأ قائم على « مصادرة » أو « قضية مسلم بها » ، إلا وهى :

— ثمة علاقة حتمية بين الأفعال الإنسانية وبين منبعها فى داخل النفس .

وتأسيساً على هذه الحتمية لابد — كما قال المسيح — أن يكون ثمر الشجرة الجيدة جيداً حتماً ، وأن يكون ثمر الشجرة الرديئة رديئاً حتماً .

وتأسيساً على هذه الحتمية لابد أيضاً أن تكون الغاية من وراء كل سعى لإصلاح النفوس وهدايتها صلاح ثمراتها من الأفعال .... أى أن صالحات الأعمال هى الغاية الملموسة لصلاح النفوس . .. . وهى أيضاً معيار ذلك الصلاح الباطنى ودليلة الملموس .

وليست الأخلاق — بمعناها العميق — شيئاً سوى هذا ، فإذا تحدثنا حينئذ عن الأخلاق كما ابتغاها السيد المسيح للناس ودعاهم إليها فنحن إنما نتحدث عن الغاية التى حددها بنفسة ورسم معاييرها ومبادئها بصريح نصه .

* * *

وأول ما يدرك به الكنه المميز لدعوة من الدعوات على إطلاقها : الاتجاه الذى تختطه للناس وتروضهم عليه .

وأول ما يدرك به اتجاه من الاتجاهات : نقطة افتراقه عن غيره وانشعابه بالسائرين فيه عن المسالك التى كانت مطروقة قبله .

وبقدر ذلك الانشعاب يحسب قدر الاتجاه الجديد بصفة مبدئية.

ولذا كان تقييم الوجهة المسيحية فى السلوك بادئا حتما من هذا الموضع : موضع انشعاب الطريق الجديد عن سابقه ، حيث يبدو الطريقان منذ الوهلة الأولى على غاية من التباين والشتات ...

والطريق إنما يتخذ توصلا إلى غاية يتغياها السالك فيه ، فباختلاف الغايات إذن تتباين الطرائق ...

والغايات إنما يتغياها الناس بباعث يدفعهم إلى اختيارها وتحديدها. وما أكثر الغايات وأشد تباينها لاختلاف البواعث الدافعة الغالبة على الناس ....

بواعث شتى تفرض على أصحابها غايات شتى . والغايات الشتى تحتم على أصحابها طرقاً شتى ....

والبواعث الغالبة على دخائل النفوس نقطة البداية التى تعين غاية المسعى وخاتمة المطاف . فهى « البذرة » التى تنبثق منها الشجرة . وهذه الشجرة هى التى تؤتى ثمرة من جنسها . وبتباين البذور تتباين الأشجار وتتباين الثمار : حلقات محكمة آخذ بعضها برقاب بعض ، ويفضى بعضها إلى بعض بغير انتقاض .

الشجرة الطيبة تؤتى أكلها ثمرا طيباً . والبذرة الطيبة هى التى دون غيرها تنبت الشجرة الطيبة كذلك الدافع الطيب يسلك صاحبه طريقا صالحا إلى عمل صالح. والدافع الخبيث يسلك صاحبه طريقا خبيثا إلى فعل خبيث .

ومرة أخرى ترن فى السمع كلمة السيد المسيح :

— المرء الصالح من الكنز الصالح يخرج الصالحات . والمرء الخبيث من الكنز الخبيث يخرج الخبائث !

فالنفس هى التى تفرض على صاحبها الغاية الآ تناسبها وترسم له طريقا معينا يفضى به إليها .

فالنفس ودخائلها إذن مناط كل شىء فى الفعل الخلقى ، من المبدأ إلى المنتهى ... وإليها نتأدى من الفعل الظاهر عن طريق الاستدلال .
ونعنى بالفعل الخلقى هنا كل فعل يخضع لإرادة الإنسان ، سواء فى ذلك ما اتصف بالخير أو الشر . فثمة بهذا الاعتبار فعل خلقى طيب وفعل خلقى خبيث .

وينحصر الأمر كله بعد ذلك فى تحديد معيار الخير والشر : فبغير ذلك التحديد يلتبس مفهوم الخير والشر . ويصبح الخير عند زيد معرضا أن يكون شرا عند عمرو . بل ومن الجائز أن الخير عند عمرو فى وقت أو ظرف معين ينقلب شرا ماحقا فى نظره بالذات فى ظرف سواه .

ونزيد الأمر بسطا فنقول إن من يرى الخير فى اللذة الحسية والشر فى الألم الحسى بغير تحديد أو رعاية لاعتبار آخر حرى أن يكون خيره (أى لذته) ألما فى أحيان كثيرة لمن يتخذهم مطية للذته أيا كان نوعها ... فإن كانت لذته فى العدوان البدنى فهى ألم (أى شر) لمن يقع عليه الإيذاء . وإن كانت لذته (أى خيره) فى السيطرة الغاشمة فهى ألم — أى شر — لمن يستمد من ظلمه وقهره إياهم تلك اللذة ... وهلم جرا إلى غير انتهاء .

وكذلك من لذته (أى خيره) فى الطعام مثلا قد يفضى به

الأمر إلى مرض ينقلب به ما كان يعهد اللذة فى الإكثار منه وقد صار أقل القليل منه مصدر ألم أى شر .

فاختيار المفهوم المحدد للخير والشر هو مربط الفرس — كما يقولون — فى معرض التقييم الخلقى كله، كائنا ما كان المذهب الخلقى.

وليست الأخلاق فى دعوة السيد المسيح شذوذا من هذه القاعدة العامة .

فمن مفهوم الخير والشر يبدأ البحث فى الأخلاق المسيحية الأصيلة ، لأنه البذرة التى تنبثق منها الشجرة وثمارها التى بها تعرف — على حد تعبيره — أو هو نقطة الإنطلاق فى الطريق الذى أستنه لمن يقبلون دعوته. وهو أيضاً المعول الحاد الذى يشق ذلك الطريق ابتداء.

فكيف السبيل إلى تحديد المفهوم الصحيح بالمعنى المسيحى من بين عشرات غيره من مفهومات الخير والشر ؟ ...

وكيف السبيل إلى المفاضلة بينها ؟

وما فيصل تلك المفاضلة ؟

أسئلة لابد عندها من وقفة تطول أو تقصر ريثما ينجلى أمرها بغير خفاء ، حتى يكون الوضوح ديدن السائر فى الطريق منذ نقطة الابتداء ...

* * *

الاختيار العسير

إن ما يعتبر فى مفهوم معين خيرا أقصى أو شراً أفدح قمين إذا تبدل المفهوم أن ينقلب من النقيض إلى النقيض .

لابد إذن من محك تتفاضل به مبادئ الخير أو مفهو ماته : وكل صاحب مذهب أو دعوة من دعوات الأخلاق يحدد المعيار على طريقته. فقد يعتبر البعض أساس التفاضل بين خير وخير قصر الأمد أو طوله ، فالخير الذى يدوم مدة أطول أفضل — فى هذا المعيار — من خير لا يلبث إلا قليلا. وعلى هذا المنحى قيل « قليل دائم خير من كثير منقطع أو مضطرب » . وفى هذا يقول المثل الدارج « نخالة دائمة خير من علامة مقطوعة » . والعلامة أصفى وأفخر أنواع الطحين .

ويقول آخرون أن المعول على « شدة اللذة أو عمقها » . وعلى هذا الرأى يقول القائل :

— اليوم خمر وغدا أمر .

أو يقول أخ له قريب منه فى المشرب :

— أعيشها عريضة ولا اعيشها طويلة . . .

ويقول فريق ثالث بالاعتدال فما من لذة شديدة إلا أعقبت ألما أو فتورا شديدا فى النفس وصدوفا من معقبات الامتلاء والتخمة . فالخير كل الخير فى اتزان يديم اللذة ويبعد الألم ما كان ذلك فى المستطاع .

وقال غيرهم أن الخير الأعظم ما شمل أعظم قدر منه أكبر عدد من الناس . وكأن قائلهم ينشد مع أبي العلاء :

فلا هطلت على ولا بأرضى

سحائب ليس تنتظم البلادا . . .

وما أبعدالبون بين هذا المقال ومقال ينادى صاحبه مع أبى فراس :

« إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر ! »

وليس من مرادنا تعقب شتى الاتجاهات فى مفهوم الخير ؛ ولكننا أشرنا إلى أنماط منها تستوعى النظر بتباينها الشديد بين الأثرة والإيثار ، بين الرعونة والحصافة . ولكل منزع منها مشابه فى فعال الناس عموماً .

وليس من الضرورى أن يعتنق المرء منهم مذهبا كهذا فى سلوكه كله جملة . فقلما يصل سواد الناس إلى هذا الوضوح فى وعى ماينشدون من غايات فى حياتهم . ولكن لا يخلو معظمهم من الأخذ بهذا المنزع أو ذاك بصورة عملية من غير وعى أو تدبر . . . بحيث تدخل بعض فعاله تحت عنوان هذا الاتجاه تارة وتحت عنوان آخر تارات . وفى لحظات متقاربة أشد ما يكون التقارب . وهذا سر ما يشاهد فى سلوك أكثرهم من تلون وتذبذب وتناقض فى أغلب الأوقات .

أما القلة القليلة التى تختار عن وعى منزعا معينا تتحراه فى سلوكها كله — كالملاح الذى يهتدى بالبوصلة ليلتزم اتجاها محددا رسمه لنفسه سلفا عن وعى وبصيرة — فليس معنى هذا التحرى أو التزام

ما اختارته هذه القلة أن نفوسها خلو من النوازع التى تريد أن تصرفها إلى غير ذلك من الاتجاهات والمنازع . فإن السفينة حين يمخر ربانها خطا محددا يتحراه دون سواه لا تسلم فى أى وقت من الأوقات من أمواج وتيارات على سطح الماء وفى باطن اليم تريد أن تتحول بها عن مجراها المرسوم . بل أن الموج الذى قد يحاكى الجبال ، والتيارات العنيفة والدوامات الهائلة هى هى بعينها وعلى حالها ، ولكن الذى يختلف أشد الاختلاف هو حال ما يجرى على ذلك اليم نفسه من بواخر ذات أشرعة أو ذات محركات أو ذات مجاذيف تتفاوت متانة وحجما ؛ وتتفاوت إعدادا وعزما ، بتفاوت أجهزة الرصد والتوجيه ، وتفاوت الربابنة والنوتية فى التمكن والحصافة والإصرار والولاء . . . وقد لا يتجاوز حال بعض المبحرين فى متاهات البحار زاد يوم أو يومين فوق طوف بلا شراع ولا مجذاف ، يتقاذفه الموج مع كل هبة ريح فى كل اتجاه . . .

ألا أن نوازع النفس هى نوازع النفس فى جميع الأفراد على وجه التقريب . والفرق كل الفرق فى القدرة على التحكم فى الاتجاه المنشود عن اختيار وإصرار ، ومعرفة بمهاب التيارات ومظان الأخطار . . .

ليس العفيف إنسانا خاليا من النزوع الفطرى إلى الشهوات . فالعفيف والداعر كلاهما يمخر فى عباب واحد من تلك النوازع . ولكن العفيف يعرف كيف يسوس سفينة نفسه ليسلك طريقا ترسمه

باختياره وإيثاره ، متغلبا على كل ما يتجاذب تلك السفينة القادرة من التيارات ، وقد يكون ما يتعرض له منها أعتى مما يتعرض له راكب الطوف الذى تنثنى به فى اتجاهها توافه الموج ، وقد تغرقه حفنة من زبد . . .

وقد يضل أو يغرق من لا يتجاوز السواحل الضحلة ، ويظفر بالنجاة من يخترق الاقيانوس الهادر وهو على بينة من أمره !

مناط الأمر كله إذن الاختيار الواعى عن إدراك وايمان بصواب الاختيار ، وليس الأمر انقيادا أعمى لما يأتى به التيار . . .

اختيار هو موضوع الحياة كلها ، لأنه الحكم على كل صور السلوك الأخرى بالإلغاء والإهدار . وليس هذا بالأمر الهين ، بل دون ذلك أهوال !

إن المخيلة تملى للمرء أن كل ما هو ممكن فى التصور فهو ممكن الحدوث . وبذلك يخال الأكثرون أنهم قادرون على إدراك كل لذة تسنح ، وإن هى إلا فرصة يهتبلها الحاذق ، فإن فاته الكثير لن يفوته القليل ، وكل ما يحصل عليه فهو مغنم ! وبذلك يظل نهبا لكل برق خلب من نوازع اللذات ، يدفعه الطمع ، ويزعه الحذر والهلع . . .

ومن يقدم على التخلى سلفا عن كل تلك اللذاذات المتخيلة

لابد أن يتذرع بمدد من الشجاعة لا يستطيع أن يزوده بها إلا ينبوع واحد : ذلكم هو ينبوع إيمانه بالمنزع الذى وقع عليه اختياره مكتفيا به عن كل منزع سواه .

ولذا يجب أن يكون هذا الينبوع كفؤا لامداده بهذا السند القوى ، والاقدام الحازم الذى لا ينثنى ولا يشوبه تردد أو ندم .

فكيف يجد المرء ذلك الينبوع ؟

لابد من الينبوع !

ذاك الينبوع المنشود ، فى داخل نفسه يجده !

« اعرف نفسك حق معرفتها ! »

ذلكم هو الباب الذى يفضى إلى الينبوع المنشود ، ولا باب سواه .

فعلى حسب إدراك كل شخص لإ ّنيته — أى صميم وجوده وكنه ذاته — يكون انتهاجه لما يحققه فى سلوكه من الأهداف والغايات . لأن الغايات التى يسعى إلى إدراكها كل إنسان إنما هى سبيله إلى تحقيق كنه ذاته أو أنيته كما يتصورها .

فمن يرى ذاته مجموع شهوات حسية يتجه همه إلى تحقيق ذاته فى اشباع تلك الشهوات يعب منها وينهل — ولا يظلمه عندئذ من يقول أنه إنسان شهوان ، لأنه هكذا تراءى فى عين نفسه قبل أن يرسم لنفسه تلك الصورة فى عيون الناس بما يحققه من صورته الباطنة فى سلوكه الخارجى .

ومن يرى ذاته طالبة جاه وتألق منظرانى يتجه همه إلى تحقيق ذاته من ذلك السبيل بطلب مظاهر الجاه وأسبابه الدنيوية بلاهوادة ، فتكون هذه صورته عند الناس ، لأنه هكذا رأى نفسه أولا ثم رام لهذا التصور تحققاً مادياً خارجياً بفعله الدائب .

ومن يرى ذاته ساغبة إلى المعرفة لا مطلب لها ولا حياة إلا بتحصيلها ، ينحصر همه كله في ذلك ، فكأنما الكون كله لم يوجد إلا ليكون مادة أو موضوعاً تنصب عليه رغبته الدائبة في المعرفة التي لا يدركها كلل أو شبع . فتكون صورته عند الناس مصداقاً للصورة الباطنة التي ارتآها لنفسه أولا ، فكأن تحققها الخارجي في فعاله إنما هو تحقيق لذاته بغير خلاف .

ولو ان امرءا من أولئك اكتشف فيما بعد كنها لذاته الباطنة مخالفاً لما كان في حسبانه لعمل على تحقيقه في سلوكه ما استطاع ، ولتحقق لوجوده معنى غير المعنى الأول . وهذا ما يفسر لنا « الانقلاب » الذى يحدث في بعض الشخصيات فجأة ويحار الناس في تفسيره ، ويذهبون إلى رميه بالتناقض أو الاختلال . وهو في الواقع أبعد ما يكون عن التناقض أوالاختلال إذا مارجعنا إلى العالم الباطن للإنسان .

ففي ذلك الباطن نجد للنفس عناصرها وقواها الكثيرة ، يتفاوت بعضها عن بعض في النوع والشدة وعوامل البروز بالنسبة لوجدان صاحبها أو وعيه .

ومن الناس من يغلبه عنصر معين كالشهوة الجنسيه . أو حب الاقتناء والتملك . أو حب السيطرة . أو حب المعرفة . أو حب الجمال ... فيفرغ لذلك لأنه يحس فيه كنه ذاته الأساسيّ — أو الأوحد في بعض الأحيان — ولا يجعل لبقية مطالب نفسه إلا المحل

الثانى ، وقد لا يكون هذا المحل الثانى إلا ضئيلا متوارياً لا يكاد يذكر ... ثم يحدث فى موقف من مواقف حياته — وقد يكون ذلك بأخرة من الوقت — أن يكتشف تحت ضغط الظروف حقيقة باطنة لذاته غير تلك التى كان يخالها وقضى عمره كله حتى ذلك الحين فى طلب تحقيقها بفعاله ، فإذا هذا العنصر الجديد الذى كان خافياً فى وهج العنصر الأول من عناصر نفسه وقد تجلى حتى ملك عليه فجاج وجدانه ...

وعندئذ لابد له من الانسلاخ من حياته الأولى ليحقق ذاته المكتشف بنهج مختلف يلائمها من السلوك والفعال ..

وما أشبه ذلك بمن كان يقف عند سفح جبل عال وسط تلال أقل منه جرماً بكثير ، فلا عجب يظن ذلك الجبل أعلى قمة فى العالم ... حتى إذا ما سنحت له ظروف — قد تكون عارضة — فدار حول سفح الجبل الشاهق أو ارتقى قمته ، اكتشف من ورائه جبلا أضخم وأعلى منه بكثير جداً ، حتى كأنما الجبل الأول لا يعدو بالقياس إليه أن يكون تلا هزيلا أو ربوة ... مع أن وجود الجبل الجديد الهائل كان على ضخامته محجوباً عن نظره آنفاً بحكم وضعه السابق .

وقد يكون هذا التحول فى إدراك النفس نحو الأسمى والأفضل وقد يكون أيضاً نحو الأحط والأرذل . . . لأن الضخامة هنا

والغلبة للتأثير النفسى ، وبميزان المشـــاعر ، لا بميزان العقل والخلق حتما ...

فالرجل المتزن ربما عرض له بعد الخمسين من عمره أو الستين أن يدرك فجأة أن قوة الفحولة فيه تؤذن بالأفول ، فإذا بما فاته من لذات الشهوة الجنسية يتضخم فجأة فى وجدانه فيصاب بذعر من فواتها إلى غير رجعة ، ويستولى فجأة عليه السعار إلى الملذات التى لم يكن يقارفها من قبل ...

وما يقال عن الرجل المتزن قد يقال أيضاً عن المرأة الرزان ..

ولكن العكس أيضاً قد يحدث للرجل الشهوان فى شبابه وللمرأة المتبذلة فى صباها ، فربما كشفت لهما أزمة من أزمات النفس قيمة أو مطلباً جديداً فى أعماقهما يصبح لديهما من بعد قيمة القيم ومطلب المطالب ، فإذا هما شخصان جديدان زهادة ونسكا وبذلا من نفسيهما لما فيه خير الناس .

مطالب النفس المتباينة حاضرة إذن بعناصرها كلها فى كل إنسان . ولكن التفاوت بين الناس فى منازع السلوك ناجم عن تفاوت إدراك كل واحد منهم لحقيقة ذاته ..

ودعوة السيد المسيح أن للنفس حقيقة واحدة ، هى حقيقة الحقائق وقيمة القيم . ومن استطاع التعرف على جوهرها النفيس من بين ركام البهارج البراقة الزائفة المزيفة للابصار ، فذلك هو

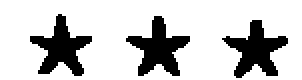
الإنسان الناجى ، الذى عرف طريق الخلاص ، لأنه يعرف كيف يطرق الباب المفضى إلى الينبوع الحى ويخلص نفسه من أنواع السراب الخطر الذى :

« لا يرتوى منه ، ولكن ويغرق ! »

فالفرق بين حقيقة النفس الحقيقية وتلك الحقائق المزيفة هو بعينه الفرق بين الينبوع الحى وبين السراب الخلب للسالك فى الصحراء ... فمن تبع السراب هلك ، ومن عرف الينبوع الصافى المطمور وسط هذه البوارق المزيفة للأبصار سلك الطريق السلطانى إلى النجاة ....

فما هى إذن حقيقة النفس الباقية الثابتة تحت هذه البهارج المضللة ؟

ما هو إذن ذلك الينبوع الوحيد الحى وسط عشرات من صنوف السراب الخلب ؟



الناموس بأكمله !

خلق الله لأنسان على صورته . على صورة الله خلقه !

هكذا يقول سفر التكوين – أول أسفار التوراة – فى الفصل الأول منه ، وفى العدد السابع والعشرين ...

والصورة هنا ليست الهيكل المادى بطبيعة الحال ، بل الصورة المعنوية الباطنة ، والتى يعنيها الفلاسفة فى مقابل الهيولى أى المادة غير المعينة .

الانسان بهذا المعنى نفحة من روح الله . وله جسد ذو حياة نامية حاسة يموج بالرغبات والمطالب ، ووسط مهارج هذه الرغبات والمطالب تنطمس حقيقة الروح أحيانا كثيرة ، أو تتشوه ويعلوها الصدأ ، ولكنها لاتندثر . فمن عرف نفسه حق معرفتها عرف أن من السماء عنصرها ، وينبغى أن تكون السماء قبلتها دون سائر القبلات ...

والله فى المسيحية ليس له من تعريف أصفى وأسمى من أنه سبحانه وتعالى « محبة » . محبة خالصة مطلقة كاملة بغير حدود .

فهذا هو « يوحنا الحبيب » ، تلميذ السيد المسيح الذى كان يحبه ، يقول فى رسالته الأولى الشهيرة ، فى الفصل الرابع :

– أيها الأحباء فلنحب بعضنا بعضا لأن المحبة من الله : وكل

من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله.ومن لا يحب لم يعرف الله ، لأن الله محبة ! (٧ و ٨) .

ثم ينثني فى العدد السادس عشر من ذلك الفصل نفسه قائلا :

— الله محبة ! من أقام فى المحبة أقام فى الله وأقام الله فية !

ومن هذا الينبوع الإلهى وحده يجب أن يكون كل باعث على أفعال الإنسان الحق بالمعنى المسيحى الحق .

وقد سأل أحدهم السيد المسيح — كما جاء فى بشارة متى ، بالفصل الثانى والعشرين منها :

— يا معلم ! أية وصية هى العظمى فى الناموس ؟

فأجابه السيد المسيح :

— أحبب الله ربك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع ذهنك تلك هى الوصية الأولى والعظمى !

وفى حديث الوداع الذى وجهه السيد المسيح إلى تلاميذه ، كما جاء فى بشارة يوحنا الحبيب ، فى الفصل الخامس عشر (عدد١٢) :

— هذه هى وصيتى : أن تحبوا بعضكم بعضا كما أحببتكم !

ولأن الله محبة . ولأن المحبة قانون الروح الأسمى . وينبغى أن تكون الينبوع الحى للسلوك البشرى الأمثل ، كانت الصلاة التى علمها السيد المسيح الناس فى عظمة بساطتها بادئة هكذا :

— يا أبانا الذى فى السماء !

هى الأبوة بالإطلاق إذن . الأبوة التى لاتدانيها أبوة إلا على

سبيل المشابهة من بعيد : إنها أبوة الإيجاد والخلق والابداع والرعاية التى لا انقضاء لها ...

أبوة على المجاز هى ، إن نحن جعلنا الأصل للأبوة ما نعهده من تناسل الأجيال . ولكنها خليقه أن تعتبر الأبوة الحقيقية وأن تكون أبوة التناسل شبها بعيدا لها بغير مراء ...

ويقول السيد المسيح بصريح النص ، فى الفصل الثالث والعشرين من إنجيل متى (العدد ٩) :

— لا تدعو لكم أبا على الأرض ، لأن أباكم واحد ، هو الذى فى السموات !

بل إن هذا المعنى نفسه ورد على لسان اليهود وهم يجادلون السيد المسيح ، فى الفصل الثامن من بشارة يوحنا الحبيب (العدد ٤١) :

— لنا أب واحد ، وهو الله !

مما يدل على أن هذه الأبوة كانت قضية مسلما بها قطعا عند اليهود قبل مجىء السيد المسيح .

وإلى معنى أن البشر جميعا أبناء الله لأنهم نفحة من روحه ، وصورتهم الباطنة الحقيقية من صورته ، يشير يوحنا الحبيب فى مفتتح الفصل الخامس من رسالته الأولى الموجهة إلى المسيحيين المقيمين فى آسيا الصغرى :

— ومن أحب الأب أحب الولد الذى ولد له أى أحبه

جميع ما خلق الله ولم يبغض أحداً — كما جاء ذلك فى حاشية الترجمة الحديثة للعهد الجديد التى نشرتها المطبعة الكاثوليكية ببيروت ص ٨٢٨ . ويؤكد هذا ماجاء بعد ذلك من قول يوحنا استكمالا لعبارته مستعملا كلمة الأبناء بالجمع :

— ونعلم أننا نحب أبناء الله إذا كنا نحب الله ونعمل بما أوصى به . لأن محبة الله فى حفظ وصاياه . وليست وصاياه شاقة فالذى يولد لله يغلب العالم !

وإلى أبوة الله للجميع ، الأبوة التى تجعل خليقته من البشر جميعا أبناء له بهذا المعنى الرفيع ، يشير أيضا القديس بولس فى رسالته إلى أهل أفسس ، فى الفصل الرابع منها ، بقوله :

- اله واحد وأب واحد للكل ، الذى على الكل ، وبالكل ، وفى كلكم !

أو كما جاء فى الترجمة الحديثة (العدد ٦) :

— اله واحد أب لجميع الخلق وفوقهم جميعاً ، يعمل فيهم جميعاً وهو فيهم جميعاً .

والمعنى فى الترجمتين واحد ، وهو يبرز أبوة الله لجميع خلقه .

فاذا وعينا أن أبوة التناسل أقرب الوشائج المعروفة لدى البشرية ، فليس أندى ولا أكرم ولا ألصق بقلوب البنين من

أبائهم الأولين ، فأحرى بالأبوة العظمى أن تكون أقرب إلى الإنسان المدرك لمغزاها من حبل الوريد !

إنه الحنان الذى لايحد ، والكرم الذى لاتحد ، الغيرة التى لايحد من جانبه سبحانه . إذن فالثقة التى لاتحد والاعتماد الذى لايحد ينبغى بالمثل أن يكونا من جانب بنى الإنسان .

الله محبة

إن كلمة المحبة قد تبدو سهلة لكثرة ما ابتذلها اللسان . ولكنها هي هذا المقام غيرها فى سائر الأغراض والأقوال .

المحبة فى هذا المقام هى الينبوع الحى للحياة النفسية كلها عند من يعرفها حق معرفتها : عند من يعرفها بالمعاناة والكيان ، لا بالتلقين وترديد الشفاه واللسان . فتظل ما عاش شغله الشاغل ، والدافع الأوحد له فى جميع المواقف .

وها هنا يجدر بنا أن نقف برهة عند صورة الاله الواحد الكامل المطلق عند أرسطو ، وعند السيد المسيح ، لنرى ذلك الفارق الضخم بين تصور كمال جامد وتصور كمال حى ، إن جاز هذا التعبير .

* * *

الله عند أرسطو هو المحبوب أو المعشوق الأعظم الذى تسعى الخليقة كلها لمحاكاة كماله والتشبه به . وليس فى وسع كائن مادى أن يأتى شيئا كاملا سوى الحركة الدائرية لأنها الحركة الوحيدة الكاملة ، التى ليس لها أول ولا آخر .

وهكذا يكون الله الكامل المطلق عند أرسطو هو « المحرك الأول » الذى تنبعث الحركة الدائرية فى الأفلاك جميعها بدافع محاكاة كماله حبا له وعشقا . . !

أما هو ، فليس العالم كله جديرا أن يكون موضوعا لمحبته أو بغضه فهو لا يشتغل بموضوع لا يضاهى كماله ، وليس من موضوع يليق

بكماله إلا معنى الكمال نفسه ، الذى هو عين ذاته . ولذا لايشتغل الله الكامل إلا بتأمل ذاته ، ولا يعنيه من أمر العالم كله شيء في كثير أو قليل !

وعلى خلاف هذا الكمال الجامد ، أو الكمال الانطوائى ، كمال الله فى المسيحية . فالله الكامل فى المسيحية محبة كاملة فياضة لا حد لها ، بنعمة محبته يشمل الجميع ، لا بحسب ما يستحقون من حيث هم ، بل بما هو له سبحانه أهل من سمو كماله المطلق وكرمه غير المتناهى .

فالسيد المسيح يقول فى موعظته الكبرى التى وردت فى الفصل السادس من بشارة لوقا الطبيب :

— . . أحبوا أعداءكم ، واحسنوا وأقرضوا غير راجين شيئا ، **فيكون أجركم عظيما وتكونوا « أبناء العلى » لأنه ينعم على الكفار والأشرار . فكونوا رحماء كما أن أباكم رحيم (٦ : ٣٥ و ٣٦) .**

لتكونوا أبناء العلى . . أبناء بررة لله الذى ينعم على من يكفرون بنعمائه ، وعلى الأشرار ، فهو سبحانه يشمل بكرمه البر والفاجر ، والغوى والراشد ، والعف والداعر . .

وفى بشارة متى العشار يقول السيد المسيح :

— أحبوا أعداءكم وادعو لمضطهديكم واحسنوا إلى مبغضيكم فتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات : لأنه يطلع شمسه على الاشرار والأخيار ، وينزل غيثه على الأبرار والفجار (متى ٥ : ٤٤ و٤٥) .

ومن هذا الينبوع ، ينبوع النفحة الالهية فى الانسان يبدأ الطريق القويم ، أو « الصراط المستقيم » ، لتحقيق ذات الإنسان الحقيقية أمثل تحقيق .

فمن أدراك حقيقة ذاته أنها عنصر ربانى باق ، لم يكن له هم سوى تخليصها من شواغلها الفانية التى تتجاذبها ، ليوجهها إلى ما فيه تحقيق ذلك الكنه الربانى .

ولئن كان أقصى ما استطاعه عالم أرسطو من محاكاة لكمال الله بدافع الحب المشبوب فى الناقص نحو الكامل أن يتحرك الحركة الدائرية الكاملة ، فإن أقصى ما يستطيعه المسيحى الحق من محاكاة لله — والله محبة ! — أن تجيش نفسه بالمحبة دافقة شاملة لا تعرف حسابا ولا تقف عند حد ، لأنه « هكذا أحب الله العالم » .

بالمحبة المطلقة وحدها يستطيع الانسان أن يكون ربانيا ، أى أبنا حقيقيا لأبيه الحقيقى الأوحد ، على حد تعبير السيد المسيح .

وهذا فى المسيحية هو الينبوع الحق والطريق الحق ، والحياة الحقة للانسان الحق .

بالمحبة لا بالرهبة والرعدة والفزع ينشد الانسان المسيحى القربى إلى ربه ، حنينا منه إلى مكانه منه وكرامته عليه ، لا مداجاة وتوجسا ودفع غائلة .

وهذا يوحنا الحبيب فى رسالته الأولى التى كتبها من أفسس على الأرجح إلى مسيحيى آسيا الصغرى يقول فى الفصل الرابع منها :

ـ لا خوف فى المحبة ! بل المحبة الكاملة تنفى الخوف ، لأن الخوف يعنى العقاب . ومن خاف لم يكن كامل المحبة . أما نحن فعلينا أن نحب ، لأن حب الله لنا سابق على حبنا . . .

عبادة هى فعل الروح التلقائى وبغية القلب ، وليست تجارة واستثمارا تغدو العبادة معهما ضربا من الوسيلة لا غاية فى حد ذاتها وأين نجوى الحبيب لحبيبه — وهى جزاء ذاتها بما فيها من نشوة — من رسالة مجاملة أو استعطاف كل غايتها مغنم يرجى أو مضرة ترفع ؟

ان شوق الفرع إلى أصله وتلهف الصدر على هواء أنفاسه لهى « العروة الوثقى » ! إنها ارتباط كيان ومصدر ومصير ، وليس مثل ذلك شئ !

إنه اكتشاف الانسان لحقيقته الضائعة وكفى . ومن ذا يضيع حياته بعد أن وجدها ؟

والفرق بين اكتشاف الحقيقة الباطنة التى هى كنه الموجود ذاته ، وبين اكتشاف أى حقيقة خارجية فرق شاسع . كالفرق بين عنقك وعنق سواك . أو بين عينك وعينه . ففى ختام كل حساب لن يستوى لديك أن يكون السيف على عنقك وعنق غيرك ، أو أن يكون القذى فى عينك وفى عين غيرك !

أن تكتشف الله فى أعماق ذاتك بكل محبته وكماله ، وأن تكتشف ارتباط ذاتك بذاته العلوية أعظم ما يمكن أن تقع عليه من الكشوف :

فانك كنت يتيما بلا أب فوجدت أباك الحق . ومن ذا يضيع

أباه وقد وجده ؟ ثم من ذا يضيع أبا « ليس كمثله شئ؟ »
إن من وجده مرة واحدة هيهات أن يفلته !

هذه هي معجزة الينبوع الحي في داخلك : بها تعرف نفسك وتعرف مكانك في الكون . وياله من مكان !

هذا الينبوع الحي المطمور داخلنا ، كيف لنا بالعروج إليه في سموه وبهائه ؟

لابد لهذا أن تتم لنا ولادة جديدة . لا من هذا العالم بالجسد ، بل بالروح : من فوق !

— وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله . ومن لا يحب لا يعرف الله . لأن الله محبة !

كلمة يوحنا في رسالته الأولى (٤ : ٧ و ٨) .

ومن ها هنا يبدأ الطريق . . . طريق السعي المتصل إلى الكمال ، لأنه الطريق الأوحد لتحقيق هذه الذات المثلى .

طريق يلغي كل تفكير في أي طريق سواه . فسائر الطرق تؤدي إلى تيه البهارج والشهوات ، لا إلى تحقيق صميم الذات .

وأيا كان لألاء الطرق المؤدية بالمرء إلى لذاذات الدنيا وجاهها وزخرفها ، فباطل ذلك كله وحماقة وغرور وغباء ، وعلى حد قول السيد :

— لأنه ماذا ينتفع الانسان إن ربح العالم كله وخسر نفسه ؟ (متى ١٦ : ١٦) .

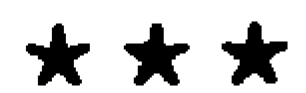
إما نفسك التى يتصل جوهرها بالله ، وإما الدنيا وما فيها .

أمامك فانظر أى نهجيك تنهج

طريقان شتى : مستقيم وأعوج !

وإنه لاختيار ما أيسره فى التصور ، وما أعسره على من هم فى عمى عن حقيقة أنفسهم التى بين جنوبهم . ويا له من عمى تهون فى جانبه ظلمات الأبصار :

« فإنه لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ! »



البــاب الضيق

« ادخلوا من الباب الضيق ، فان الطـريق المؤدى الى الهـــلاك رحب واسع • وما اكثر من يسلكونه ! وما اضيق الباب وما اوعر الطريق المؤدى الى الحياة • وما اقل الذين يهتــدون اليه ! »

السيد المسيح

موعظة الجبل (متى ٧ : ١٣ و ١٤)

أبنـاء الله

— أنا قلت أنكم آلهة وأبناء العلى كلكم !

هكذا يقول المزمور الثانى والثمانون ...

ولا بد من وقفة نتذكر فيها أبا العلاء المعرى ونترجم عليه حيث قال :

لا تقيد على لفظى ، فإنى

— مثل غيرى — تكلمى بالمجاز !

ومن المجاز إطلاق الجزء على الكل ، وعلى هذا التأويل نفهم أن الجانب الآلهى فى الأنسان وهو أسمى ما فيه ولباب جوهره المكنون — هو المبرر أن يقال عن الناس أنهم « آلهة » على سبيل التذكرة بما ينبغى أن يرتفعوا إليه إذ يكونون ربانيين . وإن هذه حقيقتهم الخالدة لا بشريتهم الفانية ، لأنه على صورة أزليته صنعهم.

وقد قيل إنها موجهة إلى الاتقياء عامة ، وقيل للقضاة خاصة لأنهم ينوبون عن الله فى إقامة العدل . ومهما يكن من شىء فهى موجهة إلى بشر ، ومدلول التسمية لاخلاف عليه أيا كانت فئة الناس ، خاصة كانوا أو عامة .

وفى حسبانى أن اللغة لو طاوعت كاتب ذلك المزمور ، وكان يكتب بالعربية لكانت كلمة الربانيين أو الإلهيين أسبق إلى قلمه من كلمة الآلهة ، ولو على سبيل ما سقناه من تأويل بالمجاز ...

لنقل إذن أن المطلوب من البشر أن يرتفعوا إلى سمو مصدرهم، ويكتشفوا حقيقتهم ، وأنهم آلهيون ، و« أبناء الله العلى » بالروح الباقى لا بالجسم الزائل الفاسد المندثر . . .

والإلهى الحق من يتشبه بالله . والابن الحق من يحاكى أباه .

والله كامل :

فابناء الله إذن ينبغى أن يكونوا كاملين كذلك !

وها هو يوحنا الحبيب فى رسالته الأولى يصيح بما عهد فيه من حمية وحماسة ؛ حتى لقد سماه السيد المسيح « ابن الرعد » .

— كل مولود لله لا يقترف الخطيئة . . . لايسعه أن يخطئ وهو مولود لله ! وشد ما يختلف أبناء الله عن أبناء أبليس ، فمن لا يعمل البر ليس من الله . . . (٣ : ٩ و ١٠)

ولا عجب ! فالسيد بنفسه قال فى موعظة الجبل ، فى الفصل الخامس من بشارة متى (٥ : ٤٨)

— فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم السماوى كامل !

ولما كان الله محبة :

فأبناء الله الحقيقيون ينبغى أن تكون المحبة فطرتهم ؛ محبة الجميع بلا استثناء .

أبلا استثناء حقا ؟

أجل ! ولامناص من هذا لمن أراد أن يكون مولود الله !

أليست الوصية الثانية بين وصايا الناموس

أحبب قريبك حبك لنفسك !

ها هو السيد المسيح يقول فى موعظة الجبل (متى ٥ : ٨٣٪٤٦)

— سمعتم أنه قيل « أحبب قريبك وأبغض عدوك » ! أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وادعوا لمضطهديكم وأحسنوا إلى من يبغضكم لتكونوا بنى أبيكم الذى فى السموات ، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والأخيار ، وينزل غيثه على الأبرار والفجار فإن أحببتم من يحبكم ، فأى فضل لكم ؟ ...

وفى بشارة لوقا الطبيب (٦ : ٢٧٪٣٦)

— أحبوا أعداءكم وأحسنوا إلى مبغضيكم وباركوا لاعنيكم وادعوا للمفترين الكذب عليكم ... فان أحببتم من يحبكم فأى فضل لكم ؟ الخاطئون أنفسهم يحبون من يحبهم . وإن أحسنتم إلى من يحسن إليكم فأى فضل لكم؟ الخطاة أنفسهم يفعلون ذلك... ولكن أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا غير راجين شيئا فيكون أجركم عظيما وتكونوا « أبناء العلى» حقا ، لأنه يجود على الجاحدين والأشرار . كونوا رحماء لأن أباكم رحيم !

الله رب الجميع بلا استثناء ، أب الجميع وكافلهم بلا استثناء ؛ فالجميع أخوتك فى الله بلا استثناء : العدو منهم والصديق !

— .. وليس من الله من لا يحب أخاه !

هكذا يقول يوحنا فى رسالته الأولى (٣ : ١٠)

ومن ليس من الله فهو منفصل عن ينبوعه الحى ، هالك مع الجسد كالبهائم التى لا روح لها ، لأنه لا روح إلا بالله ، والله محبة ؛

– ونحن نعلم أننا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب أخوتنا ومن لا يحب فهو باق رهن الموت !

هكذا يقول يوحنا فى رسالته تلك أيضاً (٣ : ١٤)

ومرة أخرى نقول أن دين المحبة يقضى بأن الكل أخوتنا ، الغرباء والأقرباء . الأعداء والأصدقاء .

– ومحبتنا لا تتحقق بالكلام أو باللسان . بل بالعمل والحق .

– ومن كانت له خيرات الدنيا ورأى بأخيه حاجة فأغلق أحشاءه دون أخيه فكيف تقيم محبة الله فيه ؟

– أن الله ما نظر إليه أحد . فإذا أحب بعضنا بعضاً أقام الله فينا وتمت محبته فينا . ونعرف أنا نقيم فيه وأنه يقيم فينا بأنه وهب لنا من روحه .

– وإذا قال أحد « أنى أحب الله » وهو لا يحب أخاه (فى الله) كان كاذباً . لأن الذى لا يحب أخاه وهو يراه لا يستطيع أن يحب الله وهو لا يراه ... فمن أحب الله أحب أخاه (فى الله) .

على هذا النسق المتسق المتكامل تمضى فقرات رسالة يوحنا الأولى كنهر من التبر تتحدث عن المحبة الشاملة التى بها يصير الناس أبناء الله حقاً . لأنه سبحانه محبة .

وإذا ألقينا نظرة على وصايا الناموس العشر وجدنا وصايا الله وإكرام الوالدين ومحبة القريب هى وحدها الإيجابية ، وبقية

الوصايا سلبية، سلسلة من النواهى ، كل وصية منها تبدأ بلا الناهية لا تقتل . لا تزن . لا تسرق ...

وبرسالة المحبة المسيحية صار الأساس مختلفاً . لم يعد الناموس كافياً ، بل المطلوب شئ أعظم من الناموس بكثير .

المطلوب منك نفسك كلها فى المسيحية ، لا أفعالا محددة أو طقوساً أو اجتناب محرمات فحسب ...

المحبة أن تعطى نفسك كلها للجميع ، لأن الجميع — وإن بدوا غرباء أو أعداء — هم على الحقيقة العليا ليسوا أقرباءك فحسب ، بل أخوتك فى الله ..

والناموس يقيم الحدود بيننا وبين سواك . أنه سور تتحصن به أنانيتك ويفصلك عن الآخرين . الذين تطلب منك المحبة ألا تحتجز دونهم شيئاً ، بل تمنحهم نفسك كلها ، وما تملك :

وإلى هذا يشير بولس الرسول فى رسالته الأولى إلى معاونه تيمو ثاوس ، الذى يدعوه « ابنى الذى ولدته بالإيمان !

— أما غاية الوصية فهى المحبة من قلب طاهر وضمير صالح » إيمان بلا رياء ... إن الناموس لم يوضع للبار ، بل للأثمة والعصاة والفجار والخطاة ولمسبيحى الحرمات ومدنسيها ، لقاتلى آبائهم وأمهاتهم ، لسفاكى الدماء والزناة . لمضاجعى الذكور والنخاسين . للكذابين والحانثين ولكل من يخالف التعليم السليم الذى يوافق بشارة مجد الله المبارك .

أبناء الله يحبون ويعطون بلا حدود .

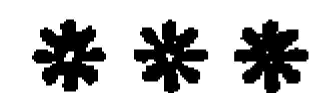
والهالكون معتدون ، ولذلك وجد الناموس لتكبيلهم . أنه يحدد لهم الطريق . . . لأنهم عميان القلوب لا يرون من تلقاء أنفسهم أين ينبغي أن يسلكوا .

المحبة تهذيب داخلى فطرى .

والناموس كمامة على فم وحش !

المحبة رحمة ورفق وحنان وعطاء .

والناموس قيد يكبل يدى فاتك معتد أثيم ، أو أسلاك شائكة تحول بينه وبين ما تنزع إليه نفسه من الجور والعدوان .



شوط بلا انتهاء !

وعســـــير بلوغ هاتك جـــــدا

تلك عليـا مراتب الأنبيــــاء !

ابن جريج

ويسألونك !

ويسألونك عن المحبة . أى شىء هى هذه التى نبدئ فيها ثم نعيد المقال ؟

وإنه لسؤال يبدو مقدما فى البحث على كل سؤال . فإذا به المعضل العضال ، الذى لاسؤال بعده إن كان لابد من جوابه قبل غيره من مواضع الأشكال . . .

أن يسألونك عن السمع والبصر ، لقلت انهما ملكتان يكون بهما السمع والإبصار ، وذاك يعرفه كل سميع بصير من غير حاجة إلى سؤال ، ولايعرفهما غير السميع والبصير على كل حال ، مهما أسرفت فى الجواب ، ومهما ألح فى التسآل !

وليس يصح فى الأذهان شئ

إذا إحتاج النهار الى دليل !

المحبة ملكة من ملكات النفس ذاتها ، وليست زيا تتزياه ، أو أداة تتخذ لغرض تتغياه .

والنور قد يكون أصيلا ، وقد لايكون : فهو حين يكون إنعكاسا فى مرآة أوجسم صقيل ، يكون نورا مستعارا غير أصيل ؛

وكذلك نور القمر – على إشتهاره بالوضاءة – فالقمر كما نعلم بذاته غير منير . أما حين يكون النور صادرا عن طبيعة مصدره بلاواسطة ،

فهو نور أصيل كالذى نعهده من نور الشمس ، لأن النور عين طبيعتها ومظهر ملازم لجوهرها .

وكنور الشمس المحبة الحقيقية : فهى عين نشاط النفس المحبه الذى لايمكن أن يكون لها نشاط سواه ، وكل نشاط لها فهو عن المحبة صادر أو إليها منتهاه . كالنبع هى يفيض بالمياه ، وبغير هذا الفيض لا يكون النبع نبعاً على حقيقة معناه .

أترى النبع الدافق بحاجة إلى من يعلمه الإغداق ؟

أترى الشمس بحاجة إلى من يعلمها كيف يكون الإشراق ؟

أترى الشمس بحاجة إلى من يبين لها وسائل تحقيقه وما ينبغى أن تتخذه من أساليب الحيطة من العتمة ؟ وهل تكون العتمة إلا حيث لا يكون إشراق ، حتى إذا كان لم يعد للعتمة مقام ؟

ألا أن الخوف على العتمة من النور ، ولا خوف على النور من الظلام ! وبغير هذا التصور ترتكس العقول وتنتكس الأفهام !

أن المعتم بطبعه هو المحتاج إلى من يحذره ويشدد النكير عليه إن أراد له الإنقلاب من عتميته إلى النورانية . إن القابع فى الظلام هو الذى يلتمس السراج . أما فى وضح النهار فمن يلتمس السراج مسكين لاانتفاع له بكل مسارج الدنيا لو صارت طوع عينه العشواء.

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره

إذا أستوت عنده الأنوار والظلم !

فالمحب بذاته — طبعا لاتكلفا ! ليس بحاجة إلى من يعين له أفعال

المحبة وتميزها له من أفعال البغض والأذى ، لأن المبصر ليس بحاجة إلى من يدله ضوء النهار وتميزه له من غلس الدجى !

لا حاجة بالنشاط الطبيعى الصادق ، الصادر عن طبيعة أصيلة ، إلى تحديد « ما ينبغى » له أن يتوخاه وما ينبغى عليه أن يتحاشاه .

يصدق هذا على النور ، وعلى فيض الينابيع ، وعلى مصادر الحرارة والطاقة ، وعلى طبائع النفوس أيضاً . وأن المحبة لمن طبائع النفوس !

أنعنى بذلك أن المحبة من طبائع « جميع » النفوس ؟

حاشا !

بل نقول أن من النفوس من فطرت بطبعها على المحبة ، وهذه النفوس — كثرت أو قلت ! — تكون المحبة نشاطها أو فعلها الطبيعى الذى يصدر عنها صدور النور عن الشمس ، والحرارة عن النار ، والماء عن النبع .

والفعل الذى هذا شأنه يتمتع بقانون الطبيعة الكونى القائم على حفظ الذات ، فهو لا يتردى فيما يناقض طبيعته فينقض وينحل ويتلاشى . بل أنه ينفر بطبعه من كل ما يخالفه ويضاده من الأفعال .

فهو من تلقاء نفسه يعرف « ما ينبغى » كما يعرف السمك السباحة من تلقاء نفسه بغير معلم .

أن المحب كائن من نوع خاص ، إحساسه غير مركز فى شخصه ، بل يتسع فيشمل غيره من الكائنات — حية وغير حية أحيانا — كأنها

بضعة منه . فإذا نحن إزاء « أنانية موسعة » — أن صح هذا التعبير — شجو غيرها شجوها ، وأسى غيرها أساها ، وإهتمامها بذاتها مساوق لأهتمامها بسواها .

وقد يسألونك : لم هى كذلك ؟

وقد تجيبهم : نفس وما سواها !

فقد تختلف فى أمر العناصر المكونة للنفس المحبة ، ولكننا ينبغى ألا نختلف فى واقع ليس منه محيص :

أن من النفوس المحبة وغير المحبة . كالأجرام السماوية منها المنيرة والمعتمة ، وكالمعادن منها الكريمة والخسيسة . لايغير من هذا الواقع معرفتنا أو جهلنا لسر هذ التنوع فى الخلق .

نفس لاتجد راحتها إلا فى البذل

ونفس لاتجد راحتها إلا فى الأخذ

كل ميسر لما خلق له .

وكل يعرف « ما ينبغى » لتحقيق ذاته ، ولايحتاج من غير طبعه وفطرته إلى هدى ، ولايتكلف فيه عناء ولا اعمال رأى .

وهل تخلو « الذات الموسعة » هذه من « الذات الضيقة » أو « الصغيرة » التى هى لباب الأنانية ومعدنها ؟

لاتخلو نفس من الأنانية ، أو الأنية ، وإلا لم تكن « ذاتا » محدودة الكيان ، متميزة عن غيرها من الذوات : ولكن النفس المحبة — أو الذات الموسعة أن شئت — ليس كل شعورها بانيتها

أو كيانها الضيق ، بل إن انيتها كجهاز الاستقبال الحساس المتعدد الموجات ، تصب فيه الحساسات بذوات شتى . . . وهى قادرة على التميز بينها ، والإعجاب بجانب منها ، وقد يصل تقديرها إلى حد التقديس أو التفدية .

هذه الذات التى تتجاوز نفسها ، وتنطلق من حدودها مع وعيها بتلك الحدود ، ذات مختلفة عن تلك الذات التى تعى حدودها ثم هى لاتتجاوزها ، وإن وعت غيرها من الكائنات فنى أطار الرغبة فى أمتصاصها أو استخدامها لأغراضها الذاتية . فالكائنات الأخرى عندها « مواد استهلاكية » . فى حين أن « الذات الموسعة » ترى الكائنات الأخرى ذات قيمة فى ذاتها ولذاتها .

النفس الانانية ممتصة مستهلكة مستنفذه . تستخدم كل ماعداها ومن عداها . ولا ترى لوجوده معنى إلا استهلاكها له أو انتفاعها به . بالأخذ تكون ، وبالعطاء تفسد .

أما النفس المحبة فالايثار ديدنها ، والعطاء كونها والأخذ المحض — دون عطاء — فيه فسادها .

ونحن بهذا إنما نعنى « الحالات القصوى » من الأنانية والايثار ؛ وفيما بين الطرفين المتناقضين ظلال تتداخل وتتفاوت لتعطينا الوف المراتب المتوسطة ، التى يجتمع فيها النقيضان فى تنويعات شتى تتباين بين الأريحية العصماء والنذالة الشوهاء . بين من يقول مع عروه بن الورد — ذلك الشاعر الصعلوك :

— أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ...

وبين من يقول مع القائلة :

— أنا ، وبعدى الطوفان !

ومن اختلاط الأنانية بالايثار فى أوساط الناس وطغيان الأنانية طغيانا يطمس ماعسى أن يكون فى النفس من قدرة على الايثار وميل إليه ، كانت « الذات الموسعة » أشبه أحيانا بالأميرة النائمة نوما سحريا تحتاج إلى من ينبهها من سباتها ويجلو عنها صداها أو يبدد تأثير السحر عن معاقد أجفانها .

ومن هنا أيضاً كان لابد لمن تعودوا الأنانية والأثرة أن يعلمهم المعلم الصالح كيف يسددون خطاهم فى « الطريق الجديد » فلايتردوا فيما ألفوه من أفعال تناقض المحبة .

أما المطبوعون على المحبة ، الذين تتقد جذوتها فى قلوبهم فليسوا بحاجة إلى هذا الترشيد ، لأنهم راشدون ، يعرفون طريقهم كما أسلفنا ، وإنما يطلب الترشيد لمن لاهادى لهم من فطرتهم . و « الأصحاء ليسوا بحاجة إلى طبيب ، بل المرضى » !

ولهؤلاء المرضى الذين يستنقذهم المعلم الصالح تكون « حدود مملكة المحبة » واجبة التوضيح ، حتى لا يتجاوزوها عن لبس فى الفهم ، أو بحكم العادة التى جروا عليها قبل أن يستنقذهم الطبيب .

ولهذا السبب لانجد فى الانجيل تعريفات للمحبة ، لأنها كما قلنا يعرف بالملك والممارسة ولاسبيل إلى تعريفها لمن لم يخبرها فى نفسه :

ولايعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

ولكننا نجد تحديدات سلبية كثيرة ، أو هى تعريفات « مانعة » تستصفى كل ماهو « لامحبة » ، كما تعزل المصفاة كل مانود تنقية الشراب السائغ من شوائبه وأوضاره ...

تفريقـات

كل الفضائل من غير المحبة لغو ... !

هكذا حرص بولس فى رسالته الأولى الشهيرة إلى أهل قورنش أن ينبه هؤلاء المحدثين فى المسيحية : مشيرا بذلك إلى « ملكة الملكات » الروحية فى المسيحية ، كى يفطن إليها من أوتوا ذلك اللمح العقلى والروحى :

— تشوفوا إلى المواهب العظمى ، وأنى أدلكم على أفضل الطرق : لو تكلمت بلغات الناس والملائكة ولم تكن لدى المحبة ، فما أنا إلا نحاس يطن أو صنج يرق .

بل يمضى بولس إلى ما هو أكثر من هذا . يمضى إلى النبوة نفسها وإلى الإيمان الكامل فيقول أنها ليست شيئاً بغير المحبة !.

— ولو وهبت لى النبوءة وكنت عالماً بجميع الأسرار ، عارفا كل شىء ، ولى الإيمان الكامل أنقل به الجبال ، ولم تكن لى المحبة ، فما أنا بشىء .

ثم يرتفع إلى مقام التضحية والفداء ، فيقول أنه أيضاً دون مقام المحبة الحقيقية .

— .. ولو فرقت جميع أموالى وقدمت جسدى ليحرق ، ولم تكن لدى المحبة ، فليس ذلك بشىء !.

وتكاد تسأل بولس : ما هذه المحبة التى عنها تتكلم وفيها تطنب ؟

ولا يجد الرجل تعريفاً لما هو بديهى بسيط ليس هناك ما هو أبسط منه حتى يعرفه به ، فحسبك أن تقول للبصير « النور » فيعرف ما تعنى بما لديه من خبرة مباشرة ، أما من تقول له « النور » فيسألك ما هو ، فلا حاجة بك إلى أكثر من هذا الجواب لتعرف أنه كفيف ، فتلجأ إلى الإحتيال ، لعل وعسى يفهم بعض الفهم ما تعنى .

وهذا ما لجأ إليه بولس ، فى تلك الرسالة الأولى الشهيرة إلى قورنثس فى جهد مستميت رائع :

ــ المحبة حليمة مترفقة ، المحبة لا تعرف الحسد ولا العجب ولا الكبرياء . ولا تفعل السوء ولا تسعى إلى منفعتها ، ولا تحنق ولا تبالى ما ينالها من السوء . ولا تفرح بالظلم ، بلى تفرح بالحق وهى تعذر كل شىء وتصدق كل شىء وترجو كل شىء وتصبر على كل شىء .

تعريفات بالصفات لا بالذات ، وبالعرض لا بالجوهر . وهو إذ يكلم مؤمنين ، الإيمان عندهم معقد رجائهم فى النجاة ومرشدهم فى دروب الحياة ، لا يتردد أن يقول لهم :

ــ الإيمان والرجاء والمحبة هى الثلاثة الباقية (وما عداها زائل) .

وبحسم قاطع يردف بقوله :

— .. وأعظمها المحبة ! فاطلبوا المحبة وتشوقوا بعد ذلك إلى المواهب الروحية !

وهو موقف له خطره ، يستأهل أن نتريث عنده ريثا له ما بعده !

ما الذى ألجأ رجلا مثل بولس إلى هذه الطبقة العالية من الصياح؟ كأنه يريد أن يدخل فى الأفهام شيئاً يستعصى على تلك الأفهام ؟

إنه جهد المستميت !

ذلك أن الذين لم « يوهبوا » نعمة المحبة ، أى لم يفطروا عليها فى أصل جبلتهم ، أشبه ممن ليست لهم « إذن موسيقية » ، وقد يرون أن تعلم الموسيقى مما يجدر بهم، فيقضون ليلهم ونهارهم فى التدريب على العزف ، أو رفع العقيرة بالغناء ... ومهما فعلوا لن يكون ما يخرج منهم فن . لأن الفن إنما عن السليقة الفنية والحس الفنى الصادق يصدر ...

إن أقصى ما يقدر عليه هؤلاء الاجتهاد ، ولكنهم فى ضلال إن حسبوا ذلك يفضى إلى شىء بغير « الموهبة » الأصيلة . وقصاراه أن يخلق « قيمة مزيفة » وبرا مصنوعاً ، له من البر مظهره وحرفه ، وليس له جوهره وروحه !

مثل هؤلاء يدورون فى فلك الحرف ، والحرف يميت

ولكن الروح يحيي كما يقول بولس نفسه فى رسالته الثانية إلى قورنثس (٣ : ٦) .

ومن قصاراهم أن يدوروا فى فلك الحرف ،أى ظاهر أعمال البر التى توصف لهم ، يجتهدون فى تنفيذ الناموس ، أى ناموس يحدد لهم أفعالا محمودة ، يطيعونها لأنها أوامر وزواجر ..

ولذا نجد بولس لا يتردد فى الإنحاء على هذا الناموس، الذى هو أمر وزجر ليس غير ، فيقول عنه إنه :

— خدمة الموت المنقوشة حروفها فى حجارة ! (٢ تورنثس ٣ : ٧) .

والناس بهذه العقلية المظهرية ، وبأفعال تصدر عن خوف لا عن شعور باطن وتحقيق للذات فى حبور ، وقد يفهمون تعاليم البر فهما حرفياً سطحياً فالسيد المسيح يقول لغنى يريد أن تنجو نفسه :

— إذا أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملكه وتصدق بثمنه على الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ...

ولما ضمن الشاب الغنى بماله الكثير قال المسيح :

— الحق أقول لكم : يعسر على الغنى أن يدخل ملكوت السموات ، وأقول لكم : لأن يدخل الجمل فى سم الخياط أيسر من أن يدخل الغنى ملكوت السموات ! .

فما تراهم يفعلون بفهمهم الحرفى ؟ قصاراهم أن يقسموا

أموالهم بين الفقراء ، يظنون أن ذلك العمل بحد ذاته بر أو فى ما يكون البر .

ولكن بولس يصيح بهم محذرا ، مخيبا آمالهم :

— لوفرقت جميع أموالى .بل قدمت جسدى ذاته ليحرق ،ولم تكن لدى المحبة (القلبية الروحية) فليس ذلك بشىء! .

أيعنى ذلك أن الفعل بذاته ليس شيئاً ؟

بلى !.

لا قيمة للثمرة إلا أن تكون « طبيعية » ، أى نتيجة نمو طبيعى من بذرة فى جوف الثرى أنبتت ساقا وأوراقا وزهرا فثمرا .

الباعث هو الأساس .ولا بناء بغير أساس. إن الثمر الصالح هو الذى تؤتيه شجرة حية، من شأنها أن تثمرمثل ذلك الثمر باطراد.

إن العمل الصادر عن النفس ، قيمته أنه « تعبير» عن مدلول باطن وفطرة نبيلة ، وليست قيمته فى ذاته ...

وبذلك ترتد القيمة إلى موضعها الصحيح ، أنها للانسان ، لا للفعل الجامد المقطوع عن بواعثه .

فما أكبر الفرق بين فعل لا يصدر عن باعث حى وشعور جياش ، وبين فعل تدعو إليه النفس وتجد تحقيقها وراحتها فيه .

النفس الإنسانية هى الأساس .

وكل قيمة للفعل بغير الباعث عليه ، فهى قيمة مزيفة، ان لم تكن مقصودة فهى هباءوغباء .وانتكن مقصودةفهى نفاق ورياء! .

إن من يفعل الأمر لا عن باعث صادق كمن يتكلف كائنا ميتا لا نبض للحياة فيه ، ما أشبهه بذلك الود « المتعب » الذى عناه الشاعر بقوله :

ألا إن خير الود ود تطوعت
له النفس ، لا ود أتى وهو متعب !

هذا الفرق بين فعل ميت وفعل حى ، هو بعينه الفرق بين الحياة والجيفة . وبذلك يصدق أبو الطيب فى فراستة الحكيمة وهو يسمى القيمة « رزقا » أى تقديراً وجزاء :

ويختلف الرزقان ، والفعل واحد
حتّى ترى إحسان هذا لذا ذنبا !

ويدخل فى عداد البر المزيف ، أو الخير الميت غير النابع من تطوع النفس المحبة ، ذلك النمط من الفضيلة الذى يستحق اسم « الفضيلة المأجورة » .

طمعا فى ثواب ، أو رهبة من عقاب ، لايكون البر إلا فضيلة مأجورة !.

وحيث يكون الفعل غير خالص لوجه الخير وإرضاء لنزوع النفس المحبة التى تفرح بتمامه ، لا يكون الفاعل إلا عبدا يسلك سلوك العبيد ، يغريه الطمع ، ويرده الفزع . يحيا فى خوف من النقمة ، أو من فوات نعمة .

لهذا يقول بولس فى رسالته الثانية إلى قورنثس ، فى معرض

الحديث عن الشريعة أو الناموس — يعنى بذلك الناموس الذى جاء عن طريق موسى مسطورا فى الألواح ، أنها :

— خدمة الموت المنقوشة حروفها فى حجارة .. (٣ : ٧) .

أما الفعل الحى ، والبر الصحيح ، فهو الصادر عن النفس المحبة ، وهو على عكس الشريعة الخارجية التى تقيد الناس وتتحكم فى ظاهرهم فقط... هذه المحبة يقول عنها يوحنا فى رسالته الأولى :

— لا خوف فى المحبة ! بل المحبة الكاملة تنفى الخوف ، لأن الخوف يعنى العقاب ، ومن يخف لم يكن كاملا فى المحبة .. (٤ : ١٨) .

ولا عجب ! . فالخوف من صفات العبيد ، وأما المحبة فمن صفات الأبناء . ولباب الخلق المسيحى ومنطلقة أن نكشف العنصر الإلهى فينا ، الذى نحن به جديرون أن ندعى « أبناء الله » :

— فعلينا أن نحب ، لأن حب الله لنا سابق لحبنا ... (٤ : ١٩) .

— وإذا أحب بعضنا بعضاً أقام الله فينا وتمت محبته فينا ، ونعرف أنا نقيم فيه وأنه يقيم فينا (٤ : ١٢) .

— ومن أقام فى المحبة أقام فى الله وأقام الله فيه (٤ : ١٦) . ذلك أن .

— الله محبة (٤ : ١٦) .

هذا هو الينبوع الذى بغيرة يكون البر ميتاً ، كاذباً ، فارغاً ، لأنه ثمرة بلا شجرة ، ونتاج الخوف والذل والعبودية .

والخلق المسيحى حرب على الزيف ، وعلى الرق ؛ كى يعتق الإنسان الحق من ظل وادى الخوف .

ولكن أدعياء البر كثيرون .

وهؤلاء أعدى أعداء الصدق . إنهم شرار الخلق ، ولوكانت كل أعمالهم الظاهرة تطابق الناموس إلى حد الإسراف .

بغير محبة لا يكون عدل حق ، ولا رحمة حقيقية . والله «يريد رحمة لا ذبيحة » .

ولم يشن المسيح حربا على الخطاة المسفرين بل عاملهم بالرفق كما يعامل الطبيب مريضاً ، بل شن حربه الشعواء على المرائين . ولا عجب كانت أقسى وصمة يرمى بها أحدا قوله :

— يا مرائى .

وبضدها تتميز الأشياء

لأمر ماضرب السيد المسيح مثل السامرى الرحيم ، الذى جاء فى بشارة لوقا الطبيب (الفصل العاشر ٢٥/٣٧) على النحوالتالى :

وإذا أحد علماء الشريعة (ناموسى) قد قام فقال ليحرج يسوع (ليجربه) :

ــ يامعلم ! ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟

فقال له يسوع :

ــ ماذا كتب فى الشريعة (الناموس) ؟ وماذا تقرأ فيها ؟

فأجاب :

ــ أحبب الله ربك بجميع قلبك ، وجميع نفسك ، وجميع قدرتك ، وجميع ذهنك ، واحبب قريبك حبك لنفسك .

فقال له يسوع :

ــ بالصواب أجبت ! إعمل هذا تحى .

فأراد أن يزكى نفسه فقال ليسوع :

ــ ومن قريبى ؟

فأجاب يسوع :

ــ كان إنسان نازلا من أورشليم إلى أريحا ، فوقع بأيدى اللصوص ، فعرّوه وأنهالوا عليه بالضرب ، ثم مضوا وقد تركوه بين لحى وميت . فاتفق أن أحد الكهنة كان نازلا ، فر من ذلك

الطريق ، فرآه فمال عنه ومضى ... وكذلك جاز لاوى فى ذلك المكان ، فرآه فمال عنه ومضى ... ثم مر به سامرى مسافر فرآه فأشفق عليه . فمال إليه وضمد جراحه ، وصب عليها زيتا وخمراً ، ثم حمله على مطيته وجاء به إلى فندق واعتنى بأمره . وفى الغد إخرج دينارين ودفعهما إلى صاحب الفندق وقال : « اعتن بأمره ؛ ومهما أنفقت زيادة على ذلك ، أفؤديه أنا إليك عند عودتى » .

فمن كان فى رأيك ، من بين هؤلاء الثلاثة (الكاهن واللاوى والسامرى) قريب الذى وقع بأيدى اللصوص ؟

فقال الناموسى :

— الذى عامله بالرحمة !

فقال له يسوع :

— إذهب فاعمل أنت أيضا مثل ذلك !...

وليس يتضح المغزى العميق الحاسم لهذا مثل الفذ ، وكيف تتجلى فيه روح المسيحية فى ذروة كما لها ، إلا إذا عرجنا على بعض الألفاظ الواردة فى المثل لتبيان مغزاها وابعادها لدى اليهود الذين وجه إليهم السيد المسيح الخطاب .

ونبدأ بالناموسى أو رجل الشريعة من هو :

الناموسى هو أستاذ فى الشريعة (أو الفقه أو الناموس) اليهودية ، حائز على درجة « العالمية » من « المدراس » أى كلية الشريعة والفقه عند اليهود ، ويختلف الناموسيون عن « الكتبة »

بأن الكاتب هو الذى ينسخ الشريعة بخطه ، أما الناموسى فيقوم بتفسيرها وتعليمها للناس ، ولذا فالناموسى هو « المعلم » بصفة رسمية عند اليهود ، بحكم العالمية التى حصل عليها بتخرجه فى « المدراس » .

وينبغى أن نلاحظ فى هذا المقام أن السيد المسيح لم يتخرج فى المدراس ، بل حصل على لقب « المعلم » الذى صار علما عليه من أفواه الشعب ، وبتقليد منه ، وهم يتلقون أنوار الهداية من فمه . فلا بد أن يكون الحسد والحقد على هذا المعلم غير الرسمى شديدين جدا لدى المعلمين الرسميين . ولا غرابة إذن أن ينهض من بين الجمع الحاشد ، فى تهذيب يقطر نفاقا ، متظاهرا فى سؤاله بأنه ينشد الفائدة ، ملقبا إياه بلقبه السائر على الألسنة ، والذى يكاد قلب الناموسيين ينشق غيظاً منه حسداً له : يامعلم . وهو فى حقيقته يريد أن يحرجه ، ويوقعه فى شرك الجهل بالشريعة التى يتصدى لتعليمها للجماهير .

وينبغى أيضاً أن نتذكر أن الثوب الذى يرتديه كل ناموسى منقوش على صدره — على سبيل التبرك والشعار — آيتان من سفر التثنية هما أساس الشريعة اليهودية كلها : « اسمع يا إسرائيل ! الرب الهنا رب واحد فاحبب الرب الهك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع قدرتك وجميع ذهنك » فما أبرع التهكم الذى رد به السيد المسيح على كيد ذلك الناموسى ، حين أحاله على ما هو منقوش فوق صدر ثوبه ! .

وكلمة القريب تعنى فى ذهن اليهود كل من هو يهودى دون سواه من أجناس البشر ومللهم، فى حين أنها فى رسالة المحبة المسيحية تعنى كل إنسان بلا تفرقة بين الناس سواء بالملة أو الديانة أو الجنسية أو اللون أو اللغة . فكل إنسان قريبك بل أخوك فى الله ، حتى وان جهل هو ذلك بعائق من قساوة قلبه أو عصبية جنسيته أو ملته ! .

ومن هنا جاء ما ظنه الناموسى شركا يوقع فيه «المعلم» الذى افتتن به الناس ، جاء ، مثل السامرى الرحيم ليلزم ذلك الناموسى الحجة ، بأن القريب الحق هو المحب الحق ، الذى يصدر فى رحمته عن المحبة التى تملأ قلبه وتفيض منه ... وليخلد فى سمع الزمن ذلك الميل العملى على حقيقة المحبة المسيحية التى توحد بين البشر ، ويمحو الفروق بينهم ، أيا كانت هذه الفروق : دينية كانت أو جنسية . وأعداء تقليديين كانوا أم كانت تربطهم بك وشيجة القربى ...

والسامرى من هو ؟

إنه من أهل السامرة .

وأنا انقل هنا عن « قاموس الكتاب المقدس » ، الجزء الأول ص ٤٤٨ وما بعدها بإيجاز .

مدينة السامرة واقعة على تل ، وتعنى الكلمة مكان المراقبة ، وكانت فعلا محصنة ببرج عظيم فى الجنوب الغربى ، ولهذا تسمى

أحياناً « جبل السامرة » وهى قائمة وسط واد خصيب ، وظلت عاصمة للمملكة الشمالية إلى وقت السبي ...

« ومدينة السامرة من البداءه مدينة وثنية وبنى فيها أخاب هيكلا للبعل ... وظل الوثن إلى أن قام يا هو بثورته فحارب هذه الوثنية ولكنها عادت فتملكت الأرض.

« وفى عام ٣٣٢ ق . م استولى الاسكندر الأكبر على المدينة ونقل سكانها إلى شكيم (نابلس) واسكن بدلا منهم مقدونيين وسوريين .

« وقد أعاد هيرودس الكبير بناءها وتحصينها وسماها مدينة أغسطس القيصر الرومانى وشيد بها هيكلا وثنياً رائع الجمال فوق موقع قصور الملوك الإسرائيليين القدامى ...

« أما إقليم السامرة فيضم وسط فلسطين ويقع بين الجليل فى الشمال واليهودية فى الجنوب . وتمر الحدود الشمالية بالمكان والمعروف حالياً باسم جنين ، وقد امتدت السامرة إلى نهر الأردن شرقاً ، ولكنها لم تصل إلى البحر الأبيض المتوسط غرباً . وفى سنة ٦ ق . م أقام أغسطس عليها حاكماً بعد أن كانت ملحقة بولاية سوريا ، وظلت هذه حالتها وقت ظهور السيد المسيح » .

والعداء بين السامريين لليهود متأصل منذ قرون طويلة ، « واستمر عداء السامرين لليهود ، فعندما نجس انطيوخس هيكل اورشليم بتقديم خنزيرة على مذبحة (والخنازير نجسة أشد النجاسة

عند اليهود)أعلن السامريون أنهم لا ينتمون إلى أصل يهودى البتة. وأعلنوا ولاءهم للطاغية بأن كرسوا على جبل جرزيم هيكلا للالة زيوس حوالى سنة ٣٢٨ ق . م تقريبا .

وفى سنة ١٢٨ استولى يوحنا هيركانوس على شكيم (نابلس) وجرزيم وخرب الهيكل بعد بناءه بمائتى سنة ، ولكن السامريين ظلوا يقدمون قرابينهم على الجبل حيث كان هيكلهم.وظلوا هكذا حتى جاء المسيح (يوحنا ٤ : ٢٠و ٢١) .

« وفى سنة ٦ ق . م ألقى بعض السامريين عظاما نجسة فى هيكل أورشليم فصار اليهودى يستنكف من أن ينجس شفتيه بنطق كلمة سامرى » . وكان يعد طعام السامرى نجسا مثل لحم الخنزير .

« وهكذا كان العداء مستحكما بين اليهود والسامريين ولم يكن اليهود يسمحون بأى علاقة اجتماعية أو دينية مع السامرين » .

والوضع الجغرافى للسامرة يفيدنا فى فهم نص أقوال السيد المسيح فى مثل السامرى الرحيم . فالسيد له المجد يقول إن ذلك الإنسان المنكوب كان « نازلا » من أورشليم إلى أريحا ، فإذا علمنا أن أورشليم تعلو فوق مستوى أريحا بأكثر من ٤٠٠ متر ، فالذهاب من أورشليم إلى أريحا يسمى نزولا ، والذهاب من أريحا إلى أورشليم يسمى صعودا والمسافة بينهما نحو ٣٠ كيلو مترا ... والمعروف تاريخيا أن ذلك الطريق كان مشهوراً فى تلك الأزمنة بكثر اللصوص وقطاع الطريق سفاكى الدماء .

والمفهوم أن هذا الإنسان المنكوب يهودى فرغ من التبرك بزيارة الهيكل بأورشليم وشرع فى العودة إلى موطنه أريحا ، التى كانت أيضاً مشهورة بأنها موطن معظم الكهنة ، حتى قدروا عدد الكهنة من سكان أريحا على أيام السيد المسيح بأكثر من عشرة آلاف كاهن يهودى .

والكاهن اليهودى هو رجل الدين الرسمى الذى يباشر طقوسه المقدسة فى الهيكل ، وهو الذى يقدم الذبائح والقرابين على مذبحة. ولكن الدين كان قد تجمد وصار حروفاً وطقوساً ونسى هؤلاء « المحترفون » المتقولبون داخل « مهنتهم » أن الدين روح وليس طقوسا ، وأن « الله يريد رحمة لا ذبيحة » . ولكن الكهنة على كل حال يمثلون قمة القداسة الدينية الرسمية عند اليهود . وفى مقارنة السيد المسيح بفعال الكاهن بفعال سامرى)المفروض عند اليهود أنه نجس ، بل إن مجرد التفوه بإسمه نجاسة !) لهو قمة الشجاعة ، وقمة الحسم فى مجابهة..اليهود بأن المعول ليس على عنوان ملتك وجنسيتك التى تنتمى إليها رسمياً ، بل المعول كله أولا وأخيراً على المحبة التى فى قلبك . لأن الله — فى المسيحية محبة : فالله فى قلبك ما كانت المحبة فى قلبك، وبقدر ما فى قلبك من المحبة،يكون وجود الله فى قلبك . وليس بعد هذا شيء يقال فى مقاييس الصلاح المتاحة لبنى الإنسان .

واللاوى ـ ذلك الرجل الآخر الذى قارنه المسيح ، مثلما قارن الكاهن ـ بالسامرى الرحيم ـ من هو ؟

يقول قاموس الكتاب المقدس (الجزء الثانى ص ٨٠٧) :

أنه كل رجل من سبط لاوى بن يعقوب — وكان موسى وهارون لاويين — مكلف بالاهتمام بكل ما هو مقدس ، ولاسيما الهيكل ، وقد أفرز هارون وأبناؤه ليكونوا كهنة للرب ، وأصبحت هذه الخدمة وراثية .

وكان اللاويون متوسطين بين الشعب والكهنة ، وكانوا أقرب إلى تابوت العهد من الشعب . . . وكانوا حين الخدمة يرتدون ملابس رسمية خاصة .

الكاهن واللاوى إذن : رجل الدين ومساعده الرسمى كلاهما كان يدعوه أكثر من داع لإنقاذ ذلك اليهودى الجريح : فهناك رابطة الديانة المشتركة ، ورابطة القومية ، وهناك وصية الناموس التى وردت فى سفر التثنية (٢٢ ، ٤)

— لا تنظر حمار أخيك أو ثوره واقعا فى الطريق وتتغافل عنه !

ولكن الذى كان « واقعا فى الطريق » كان أخاه بنفسه ، وليس حماره أو ثوره !

ومع هذا نكل كل منهما ، مع عدم المشقة فى إنقاذ الجريح ، أو محاولة إنقاذه ، ولعلهما خافا قطاع الطرق ولكن السامرى ، الذى يفترض فيه أنه ليس « قريب » اليهودى ، بل عدوه الألد لم يخش شيئا من خطر اللصوص . بل ولم يخش خطراً كان الاجدر به أن يخشاه كما يخشى اللصوص أو أشد : فالمنطقة يهودية ، ومن

الجائز ان يمر يهود فيتهموا السامرى — بدافع العداء التقليدى المحتدم — أنه هو الذى إعتدى على اليهودى الجريح ذلك الإعتداء المنكر ، فتذهب بذلك روح السامرى فى سورة غضبهم .

ولكن المحبة التى طبع عليها قلبه أبت عليه أن يفكر فى غير الرحمة ، مهما كانت المجازفة ، ومهما كان الخطر على شخصه كبيرا.

وبضدها تتميز الأشياء !

طرفا نقيض : عند أحدهما يقف الكاهن واللاوى مساعد الكاهن ممثلين لحروف الدين وطقوسة وأشكاله المظهرية ، وعند الطرف الآخر يقف السامرى الذى يعتقد اليهود أنه نجس وعدو تقليدى لدينهم وجنسهم ممثلا روح الدين والتقوى ، ممثلا روح الله الحقيقى ، لأنه يمثل المحبة الرحيمة التى لاتبالى فى سبيل ذاتها العليا أن تتعرض للموت ، بغير داع أنانى أو رابطة إلا رابطة الإخاء الإنسانى وداعى المحبة الدافقة فى نخوة وأريحية .

« اذهب فاعمل أنت أيضاً مثل ذلك ! »

أى مثل السامرى ، ذلك الكافر المزعوم ، لامثل الكاهن الغليظ القلب ! هكذا قال السيد المسيح .

برح الخفاء إذن :

— ومن أقام فى المحبة أقام فى الله ، وأقام الله فيه .

(يوحنا فى رسالته الأولى ٤ : ١٢ / ١٦)

ذلك أن :

— الله محبة

كما يقول القديس بولس فى رسالته الثانية إلى قورنثوس (٤ : ١٦)

برح الخفاء إذن :

فالله فى قلبك — كائنة ماكانت ديانتك أو جنسيتك — مادامت المحبة فى قلبك .

الله فى قلبك — حتى ولو جهلت أنت هذا أو جهله الناس عنك — مادامت المحبة الكاملة العاملة متقدة فى قلبك . ولامقياس لصلاح البشر سوى هذا .

هكذا دمغ السيد المسيح المظهرين والمنظرانيين بمثله الفذ .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

أشباه ... ونقائض !



أفانين الحب

ما أكثر المشاعر التى تندرج تحت اسم الحب . وما أشد تباينها ، حتى لتوشك ألا تلمها على شعث . بل إن بينها — تحت ذلك الاسم الواحد — ما بين الضد وضده من تقابل . ولكن اندراجهما تحت اسم واحد — هو الحب — يجعل الضدين فى كثير من الأحيان موضع التباس ، ما أيسره على اللسان ، وما أبشعه على المشاعر والأذهان .

وفيصل التفرقة بين نوع من الحب وضده ، أن ننظر إلى اتجاه نفسية المحب . أهو الاستحواز على موضوع حبه فهو عنده شىء يريد أن يتملكه ويشتهى أن يستهلكه ، فيجد فى استهلاكه أو استخدامه متاعا لحسه وشفاء لنفسه ، أم هو البذل لموضوع حبه والتفانى فيه والحرص عليه حرص الصيانة والإكبار .

إن فلانا يحب ذلك النوع من الطعام ، كما يحب الثعلب الدجاج . وكما يحب النحل الأزاهير . . . هذا لون من الحب نجد نقيضه عند من يحب تحفة من تحف الفن . أو عند الأم التى تبذل ذاتها لراحة وليدها واسعاده ، أو عند المؤمن الذى يحب عقيدته أو المرء الذى يحب وطنه .

والتضاد بين هذين الفنين من فنون الحب واضح . أولهما يأخذ والثانى يعطى . الأول يستهلك ويمتص موضوع حبه لإثراء ذاته ، ويجد متعته فى « استخدام » موضوع حبه ، فهذا الموضوع أداة

أو وسيلة لإثراء أنانيته . أما الثانى يستهلك أنانيته لإثراء موضوع حبه ، لأنه يحب هذا الموضوع — شخصا كان أوشيئا أو معنى مجردا — لذات هذا الموضوع لا لذات نفسه هو .

فما أحرانا إذن أن نسمى ذلك الضرب الأول من ضروب الحب — ذلك الضرب المستهلك المستحوز — بإسم الاشتهاء . وما أحرانا — إن شئنا رفع الالتباس — أن نخص الضرب الثانى من ضروب الحب — ذلك الضرب المانح الباذل لحبه ذات نفسه — باسم الحب.

وقد يختلط النوعان، فيجتمع للعاطفة الواحدة الرغبة فى الاستيلاء والاستخدام والأخذ ، والرغبة فى البذل والحياطة والاكبار ، وما أكثر ما يكون هذا فى حالات العشق الراقى الذى تحف به مشاعر الإخلاص والهيام .

وفيصل التفرقة فى هذه الحالة أن نمتحن المحب بموقف من المواقف المسرفة فى تطرفها ، لنرى هل البذل عنده أرجح ، أم الأخذ والتملك والاستيلاء . هل الأنانية المستهلكة هى الأقوى ، أم الإيثار وإنكار الذات والفداء .

ويذكر الذاكرون فى هذا قصيدة تناقلها الرواة ، فيها تغزل حسى تفصيلى فى محبوبة هام بها الشاعر ، واسمها — إن لم تخن الذاكرة — « دعد » . وفى ختامها يتساءل الشاعر

فيا لهف نفسى ما حييت ! وإن أمت

فيا ليت شعرى من يهيم بها بعدى !

فلم يعجب ذلك القول الأمير « الفحل » الذى كان الشاعر ينشده القصيدة ؛ وساءه منه هذا التساؤل ، واقترح عليه أن يكون الشطر الأخير :

فلا صلحت دعد « لذى حاجة » بعدى !

كأن يدركها العطب أو الأفن أو القبح . . . أو الموت !

فها هنا نمطان من العشق : عشق شاعر لا يتمنى لمحبوبته — أو معشوقته — سوءا وإن اصابه الموت ، ولا يتصور أن تظل على قيد الحياة من غير أن يهيم بها هائم . وعشق «فحل» ليست المعشوقة عنده إلا « أداة » متعة يقضى بها — على حد قوله — حاجة له ! فإن هلك لا عاشت ولا كانت ولا راقت ذا حس أو قلب ! وهاهنا الفيصل بين الحب والاشتهاء ، أو بين البذل والأخذ . فى الشاعر يجتمع الأمران ، ولكن الايثار عند مفترق الطرق أرجح عنده من الأثرة . وفى « الفحل » قد يجتمع الأمران فى صورة حرص وإعزاز ، ولكن الأثرة عند مفترق الطرق أرجح عنده من الايثار . . .

ومن الحب ما يكون خالصا بغير رغبة فى التملك ؛ بغير اشتهاء ، وبغير هوى . لا يطلب من موضوع حبه شيئا ، وقصاراه أن يعيش لمحبوبه وأن يمنحه ذاته وأن يفديه ، وكل ذلك بدون ملامسة حسية ، أو استمتاع ، إلا النشوة الروحية التى يجدها مثل هذا المحب فى « وجود » محبوبه ، بحيث يكتسى الوجود كله رونقا من مجرد وجود المحبوب فيه .

ومثل هذا الحب يعرفه المريدون المخلصون لأستاذهم أو زعيمهم الروحى أو العبقرى الذى يهيمون به ذلك الهيام المنزه عن الرغبة، فيود الواحد — أو الواحدة — منهم لو فدى ذلك المحبوب بنفسه وما يملك ، وسواء عليه — أو عليها — أن يبادلهم المحبوب مثل ذلك الشعور ، أو ألا يكون لهم فى خاطره وزن . فهم يحبونه « بما هو أهل له » لا بما هم أهل له . فليس التبادل أو التساوق شرطا لمثل تلك العاطفة . لأنها أشبه بالتقديس ، الذى يغلب فية على المحب الشعور بالتفاوت الكبير بين مستواه ومستوى محبوبه . وعلى قدر التفاوت يكون الحب .

أكبرت قدرك حتى لست أدركه
وأصغروك فنالوا منك ما طلبوا . . !

ومن هذا القبيل من الحب — أو قريب منه جد قريب — حب الآيات الفنية . يحبها المحبون لها لا لأنفسهم . وفيصل التفرقة بين هذا الحب الفنى ، أو ذاك الحب القدسى ، وبين الهوى أو الاشتهاء، فى نوع الغيرة التى تقترن بكل نوع منهما . ولابد من غيرة تصاحب كل حب ، ولكنها غيرة تختلف باختلاف نوع ذلك الحب .

فحب الاشتهاء تكون الغيرة فيه غضباً ونقمة على منافس فى التعلق بالمحبوب . وقد تصل هذه الغيرة إلى القتل . وقد يذهب المحبوب ضحية هذه الغيرة إذا شك المحب أن محبوبه يبادل منافسه الهوى أو الميل . . . وما أكثر الجرائم التى يسمونها عاطفية، الناشئة

عن هذا النوع من الغيرة التى تبلغ فيها الأنانية المستحوزة المستئثرة ذروتها .

والحب الفنى أو القدسى ، مثل حب العقيدة ، أو اللحن الموسيقى أو الوطن ، أو الرائد أو الزعيم ، أو العبقرى ، يشعر فيه المحب بالغبطة إذا وجد له شريكا فى عاطفته ، وتكون هذه المشاركة آصرة قرابة ومودة بينهما ، لا إعلان حرب . فالمحب فى هذه الأحوال يحب من يحبون محبوبه . ولا يغار منهم . وإنما غيرته ممن يزيدون عليه فى حبهم تفانيا ، ويتفوقون عليه فى الهيام والوجد والتعبد والعطاء . ولكنها غيرة لا تسخطه عليهم ، بل على نفسه لما فرط منه من التقصير فى ذلك المضمار المجيد .

بيد أن هذا القبيل من الحب النزيه لا يخلو من غيرة الغضب المتقدة التى قد تؤدى إلى الجريمة والعدوان أيضا ، ولكن من باب مختلف جدا . فالمحب فى هذه الأحوال يغار على محبوبه ممن يسيئون إليه ، وينقم عليهم ذلك أشد من نقمته على من يسيئون إلى شخص المحب نفسه آلاف المرات . بل إنه قد لا يبالى من يغضون من قدره أشد الغض ، أو يتحيفون عليه أعظم التحيف ، ولكنه يقوم ويقعد وتثور براكين غضبه لأتفه التجاهل لقدر محبوبه . أما الإساءة الصريحة المتعمدة فهى التجديف وتدنيس المقدسات ، وليس وراء ذلك مأثم لآثم !

وفيما بين حب الهوى وحب التقديس حب هو بين بين ، هو

محنة للمحب أى محنة ، فى حين أن حب التقديس نعمة وغبطة وسكينة نفس ونشوة ما بعدها نشوة .

ومن هذا القبيل حب قيس بن الملوح ، وهو الذى خولط فى عقله ، حتى لم يعد يدرى ماذا يريد ، فلا راحة له فى بعد أو فى قرب :

هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى
وزرتك حتى قيل ليس له صبر

ومنه أيضا حب جنادة العذرى الذى بلغ من اضطراب حاله وشدة كربه أنه قال :

من حبها أتمنى أن يلاقينى
من نحو بلدتها ناع فينعاها !
كيما أقول فراق لا لقاء له
ويضمر القلب يأسا ثم يسلاها
ولو تموت لعزتنى ! وقلت له
يا بئس للموت ، ليت الموت أبقاها !

ومبعث ذلك الكرب الوجيع أن هذا اللون من العشق مضطرب بين التقديس والرغبة ، وينشد لدى محبوبه مثل عاطفته المتأججة نحوه ، ولا يرضيه أقل من ذلك . ولعل هذا الشعور هو الذى عبر عنه قيس بن الملوح حين دعا ربه فقال :

فيا رب سوّ الحب بينى وبينها
كفافا . فلا يرجح لليلى ولا ليا

وإلا فبغضها إلى وأهلها

تكن نعمة — ذا العرش — أهديتها ليا !

ولكن المحب فى هذه الحالة لا يرضى بالشفاء من حبه ، ولو كانت فيه راحته من كربة ، لأن حبه صار موضوع حياته :

داونى يا طبيب وأعرف دوائى

لست أبغى الشفاء كل الشفاء !

ان دائى كالسهم أنشب فى القلـ

ب ، وكالسهم قر فى الأحشاء

لبثه موجع . وأوجع منه

نزعه . والهلاك فى الإبطاء !

ومعظم هذه « الحالات » الغرامية يشقى بها أصحابها ، ولا حيلة لهم فى ذلك . ولو أن أباليلى رضيها زوجا لقيس بن الملوح ، لما كان جنونه بها — أكبر ظنى — حريا أن يقل ، لأنه ليس « الوصال » الجسدى ما ينشده ، بل أن يكون له فى نفس محبوبته « مثل » الذى لها عنده من الهيام الذى يأخذ على النفس منافذها ومسالكها ، فليس لها عنه مذهب ولا محيص . أى أن تكون مجنونة به كجنونه بها ، وأن يغدو كل حياتها وتفكيرها ، لأنها كل حياته وتفكيره ! بل أكبر ظنى أنه سيظل شقيا بما يكون بينهما ، إن تم له ما ينشده من تعلقها إلى حد الوله به ، كتلك الحال التى صورها ابن جريج الرومى :

أعانقها والنفس بعد مشوقة

إليها . وهل بعد العناق تدان ؟ !

وألثم فاها كى تذوب صبابتى

فيشتد ما ألقى من الهيمان !

كأن فؤادى ليس يشفى غليله

سوى أن يرى الروحين تمتزجان ! !

فامتزاج الروحين هو المنشود إذن من كل اتصال جسدى فى تلك الحالة . وهو مطلب لايرام . وإذا ريم من هذا الطريق هيهات أن ينال !

والفارق على كل حال بين حب الأثرة أو الاستخدام أو الاشتهاء أو الهوى ، وبين حب الإيثار والخدمة والعطاء ، خالصا كان أو مشوبا ، يورث المبتلى به الاضطراب والسقم . أن حب الاشتهاء يجعل — كما قلنا آنفا — موضوعه وسيلة له . فكأنه ينزل بالإنسان عن مرتبة الغاية المقصودة لذاتها إلى مرتبة الشئ أو الأداة. وهى لعمرى أحط جريمة يمكن أن ترتكب فى حق انسان : لأنها النخاسه والاسترقاق وان لم يتم فى الصفقة بيع وشراء صريحان . فالمحبوب حكمه حينئذ حكم المطية التى يتخذها المحب ليصل إلى « حاجته » .

وذلك هو المسخ الوبيل لانسانية الانسان ، والانحطاط الذى لا يجاوزه انحطاط . . . مهما تخفى ذلك الشعور تحت تمويهات الرغبة وإغرائها وتزاويقها .

إنه ليس حبا . إنه عهر !

لا يكون الحب حبا إلا حينما يكون المحبوب غاية لذاته، توهب لها النفس ، وتتدفق نحوها بالعطاء والغيرة عليها من شانئها . وبذلك وحده تظل للإنسان قيمته الشريفة مصانة معززة مكرمة .

ويقتضى ذلك الحب المعطاء أن نفكر لحساب المحبوب فنسعى لخيره دون نظر إلى مصلحتنا . بل وعلى حساب مصلحتنا إن اقتضى الأمر ذلك . وهكذا حب الأب الرشيد والأم الرشيدة .

وبمقتضى ذلك الحب قد يجد المحب نفسه — حرصا على خير محبوبه — مندفعا إلى مظاهر من السلوك ربما التبست عند الجاهل بالقسوة ، بل وبالبغض السافر .

إن الأب الغيور على خير ابنة يحرم نفسه ليوسع على هذا الابن . ولكنه أيضا قد يجد من خير هذا الابن أن يضيق عليه أحيانا حتى لا تفسد تربيته .وقديؤدبه بالزواجر القاسية والروادع الموجعة أحيانا.

ولسنا هنا بمعرض الخوض فى الزواجر والعقوبات أنافعة هى أم ضارة . ولكننا فى معرض تأويل البواعث عليها .

إن الرجل قد يشاهد يربت خد ابن جاره الصغير وقد ارتكب هذا الصغير هفوة ، ويهش له مهونا ومجاملا . ثم يشاهد هذا الرجل بعينه وقد شدد النكير على ابنه هو وقد فرط من هذا الابن مثلما فرط من ابن الجار أو ما هو أقل . والملاطفة والتشدد فى الحالتين لا يدلان فى ظاهرهما على نظير هذا الظاهر فى باطنه من الحب، بل

إن الحب المحتدم الغيور على خير ابنه ، من وراء الرغبة فى أن يكون هذا الابن على ما ينبغى له من الكمال ، الأمر الذى رفعه إلى التشدد العنيف معه . أما ابن الجار فليس له فى قلبه مثل تلك الجذوة المتقدة من الحب !

كذلك حب الأم وليدها قد يكون حبا قاصرا فتطعمه كل ممنوع وهو مريض. ويكون حبا راشدا فتصم أذنيها عن إلحافه وبكائه برأ به وخوفاً عليه . وتتحمل عذاب بكائه لحرمانه وجوعه مؤثرة ذلك على الإضرار بصحته .

وقسا ليزدجروا . ومن يك راحما

فليقس أحيانا على من يرحم !

ويرويها بعض الناس « حازما » لا « راحما » .

والحزم هنا أدق من حيث المعنى الذهنى . أما الرحمة فأدل على ما وراء المعنى الذهنى من رصيد العاطفة المشبوبة والدافع الوجدانى .

فالمعول فى كل حالة على « الباعث » النفسى وراء القسوة أو التدليل أو التقطيب أو الابتسام

ولما صار ود الناس خبا

جزيت على ابتسام بابتسام

رحم الله أبا الطيب ! فالابتسام هنا أدل على العداء . كأنما هو سلاح فى معركة . حيث التهجم أدل على المصافاة والصدق !

ومثل ذلك يقال عن الصديق الحق . فصديقك من صدقك لا من صدّقك ! والصديق الذى تحبه لذاته لا لذاتك ، لا لمنفعة تنالها من ورائه ، لابد أن تغار على كمال خلقه وفعله . فتعارضه إن وجدته يهم بما لا يليق به . ولا تجامله حين يخطئ . ولا تجاريه فى اندفاعاته ونزواته وطيشه .

وكل من جرب ذلك الحب خليق أن يحس عمليا معنى القول السائر

— قالة الحق لم تدع لى صديقا !

فكل حب منزه — أى لذات المحبوب لا للانتفاع به — فمن ورائه حب لمعنى الكمال ورغبة فى اتصاف المحبوب به قدر الإمكان. فالكمال هنا هو المستوى الذى تريد لمحبوبك أن يرقى إليه . فإن وجدت فيه اجتهادا فى هذا السعى أوشك حبك له أن يكون تقديسا ، بقدر ما تأنسه من تحقق الكمال فى محبوبك . ومن ذلك القبيل حب المريدين للرائد الروحى أو الفكرى .

وخلاصة القول أن الحب والاشتهاء كليهما «علاقة مشخصه» ، أى تربط بين المحب والمحبوب المعين فى علاقة مانعة لسائر الناس أو الموضوعات .

وهذه العلاقة المشخصة لا تقاس بمظاهرها عندما تكون منزهة قائمة على الإيثار ، بل تقاس ببواعثها ، وتتخذ لنفسها من ألوان

السلوك وأشكاله ما يعبر عنها أو يحققها بحسب المواقف المتباينة . حتى لقد يكون السباب أدل على اتقاد الحب من البشاشةو الإطراء ! فللقلب منطقه فى فعاله . وإليه وحده يكون الاحتكام فيها . أما المقاييس الخارجية فعمى وجهل فاحش أن يقاس بها الحب الذى منبعه السريرة .

ولا غناء فى ذلك للبصر دون البصيرة . . .

من أشواك الحب :

اعترافات انسان متفسخ

وإن يك عن ليلى غنى وتجلد

فرب غنى نفس قريب من الفقر !

قيس بن الملوح

* * *

حدثنى منذ عشر سنين أو تزيد من أعرفه معرفة وثيقة ، وكان معدوداً من رجال الفكر وأنا بعد فى مطلع الشباب ، بما يدمى وجدانه من أشواك حبه المتقد لزوجته التى سلخ معها معظم حياته ، حباً ملك عليه آفاق نفسه قال :

ما أشد تشابك نسيج الحياة على من حرص على تكميل نفسه بتحرى الحق ووقف جهده على معرفته والسلوك إليه والتعريف به ..

وقد وهم من خال مشكلة المشكلات فى معرفة نفسه على حقيقتها فقد يجد بعد ذلك أشد المشقة فى انتزاع نفسه من علائقها الأخرى ليخلص للغاية المثلى التى آمن بها وشحذ لها قواه كافة .

وربما هان عليه أن يقمع شهواته ويسخرها لإيمانه ذاك

فتسلس بعد جماح . وربما أمكنه أن يحقر — فى نور الحق — لألاء الشهرة والمال والجاه وحسن السمعة . ولعل أقسى هذه جميعاً أن يعرض سمعته طائعاً للمغامز وسوء القالة والمفتريات ، فى سبيل كلمة حق تطالبه مبادؤه أن يجهر بها ، وهو عالم أن دفع ما يرمى به من البهتان والبطل عسير ، بل مستحيل ...

كل ذلك قد يكون مستطاعاً وإن كانت دونه من غمرات النفس أهوال يطيش لها العقل وتطير منها النفس شعاعاً فى أكثر الأحيان. ولكن من باعوا الحق والمبدأ والإيمان أرواحهم قد يوجدون على كل حال .

بيد أن القلب قد لا يخلص — بعد أن خلع الدنيا وغرورها — للغاية الحقة التى عرف المرء أنه خلق لها ، بحيث لا يكون لحياته موضوع سواها أو اشتغال بغير تحقيقها ... بعد أن وجد فيها ذاته الحقيقية .

ويحضرنى فى هذا المقام مثلان بارزان :

مثل من عالم الفن ، ومثل من عالم الفكر ...

أما المثل الذى من عالم الفن فهو « جوجان » الذى نازعته نفسه بين العمل « المحترم » اجتماعياً ، والأسرة « المحترمة » بما فيها من زوجة وأطفال تقربهم عين كل أب ، وبين « الرسم » موضوع حياته الحقيقى الذى وجد فيه نفسه الحقة . وقفز من

الأمان والاستقرار إلى هوة المصير الدنيوى المجهول ، ليعيش للرسم فى متاهات البحار الجنوبية فى المحيط الهادى ، فى جزيرة « تاهيتى » همجيا فقيراً مريضاً وسط جماعة من الهمج . وبذلك انتزع ما يعدل الدنيا بما فيها ومن فيها ليخلص لموضوع حياته الأمثل ، ويتمكن من تحقيق ذاته كما وجـــدها وعرفها وآمن بها ...

وأما المثل الذى من عالم الفكر ... فهو « كير كجور » الذى أحب وهو فى الخامسة والعشرين فاتنته « رجينا » بكل وجدانه ، ودفعه الهيام بها إلى حالات من الوجد على مدى شهور طويلة ، حتى استطاع أن يستميل قلبها العذرى الغض ، فأحبته، واستجابت لخطبته ، وأحس كأن الدنيا كلها دانت له ، أو كما قال : «صار لى بحبها البرء من كل علة ، فأنا صحيح معافى بما وهبته من الصحة والعافية والبراءة ، فهى حياتى وغدى ! »

إلا أنه كان قد وهب نفسه لحياة الروح والتدين التى تأبى عليه أن يخدم سيدين ، وتطالبه بالعزلة والتوحد لخدمة الكلمة وخلاص نفسه وهداية الناس ... بل ليكون هدفه الأوحد الاتحاد بالله ... فكيف يربط حياتها بحياته وحياته ليست خالصة له يتصرف فيها كيف شاء ، بل هى ملك لرسالته الروحية ؟

أنها لا تستحق منه أقل من حياته كلها ، فمن الغش أن يغبنها

بارتباط يعدها فيه بما يعلم أنه لا يستطيع أن يؤديه إليها . وعليه إذن — إن حرص على صدقه وأمانته — أن يختار بينها وبين الله !

ورد إليها خاتم الخطبة بعد عام من الصراع المحتدم ، وقد خير فأختار ، وعاش بقية عمره ملتاع النفس ، يعانى قلبه من عقابيل هذا الانتزاع الوجيع لأعز ما فيه .. يشبه نفسه دوماً فى كتبه التى تصور محنته وتجربته القاسية بأبى الأنبياء ابراهيم ، وقد مضى بابنه ليذبحه وقد رزقه فى أخرة من العمر بعد يأس ، صادعا بأمر ربه .. وما فى قلبه من الأسى قمين أن تتفطر له جلامد الصخر ، وتخر له الجبال هدأ .. !

هذان — جوجان وكير كجور — عرفا كيف يختاران سبيلهما وقد وجدا نفسيهما على فداحة الثمن التى يصورها تعبير السيد المسيح : « ما أضيق الباب وأكرب الطريق ! » وفى حسبانى أن الاحساس بتفاوت المعدن بين كل منهما وبين من فارقه من أعزائه كان الحافز الأكبر على استهوال المشاركة فى حياتهم ، تلك المشاركة التى تفرض عليه « الازدواج » المعيى للعقل . والوجدان ، والضمير ، ويفضى بصاحبه الى خيانة العالمين جمعياً — عالم الأغيار وعالم السريرة — وكلاهما عزيز ، وفى ذلك ما فيه من التفسخ والتمزق الذى لا طاقة لانسان به .. ومن هنا يفرض الاختيار العصيب نفسه : فعليه أن يبتر أحد العالمين بتراً ، كمن وقعت قدمه فى فخ على قضيب قطار يوشك أن يدهمه ، فإما أن يبتر قدمه ليخلص

سائره ، أو قضى عليه كله .. وناهيك بالبتر من عذاب ! وناهيك بالهلاك من هول !

أما من يطمع فى الاحتفاظ بكل شئ ، فما أحراه أن يخسر كل شئ . فإنه « من طلب أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن أهلكها يحييها » ، على حد تعبير انجيل لوقا (١٧ : ٣٣)

... وأنه لأحجى ألف مرة ان كانت يدك اليمنى تعثرك أن تقطعها وتلقيها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يهلك سائرك .. على حد ما ورد فى موعظة الجبل ...

لقد وجد جوجان وكير كجور اذن فى نفسيهما ما ينبغى من شجاعة ايمانهما بما يريدان لنفسيهما من تحقيق الذات ، فكان البتر الوجيع الخصب ...

أما أنا ... فمحنتى — مثلهما — نابعة من نفسى ، وفى نفسى — أنا الشقى — معتركها المحتدم ... ولكنى لست قادراً على ما قدرا عليه ، وأن أبصرت مثلما أبصرا أين يقع طريقى بين مسالك الحياة ...

أنا أيضاً فى حياتى « رجينا » ... ولكن سطوتها على فؤادى أشد استشراء ، وجذورها أبعد غوراً وألطف مسربا ، حتى لقد خالطت مكامن الروح ، لا تنتزع الا بانتزاعها ، ولا أكلف نفسى أطراحها الا كلفت نفسى الموت بلا زيادة ولا نقصان !

لقد عرف كير كجور حياة الخطيئة قبل أن يلقى رجينا ،

وقارفت نفسه المآثم . أما أنا فقد حفظت لها نفسي وزكيتها لتكون بها جديرة قبل أن ألقاها . وحلت مني محلا لا يبلغه أعز الولد من فلذات الأكباد ، وما هو أن حلت بحياتي حتى غدت تقاليد تلك الحياة . إن اشرقت اشرقت ، وان اعتلت لم تبق جارحة في نفسي إلا اعتلت ، فما أكاد أقدر على فتح عيني أو إطلاق لساني أو إعمال فكري . استمد من سعادتها وحبورها كل حظي من الفرح بالحياة .

لها لا لنفسي أحببتها . لا أرى ذاتي إلا في مرآتها ، ولا أجتلي مباهج الدنيا إلا بناظريها . فإن سميت هذا مرضا فما دعائي إلا :

فيا حبها زدني جوى كل ساعة
ويا ساوة الأحباب موعدك الحشر !
وإن كنت مطبوباً فلا زلت هكذا
وإن كنت مسحوراً فلا بطل السحر !

وإن قلت أنه مرض ، فأين الصحة ؟ لا عوفيت إذن ! وإن قلت أنه فاقة ورق ، فأين الغنى والعتق ؟

أهي الرغبة ؟

لا . فما تكون الرغبة إلا في عارض . أما ما يكون موضوعه ذات المحبوب وما فيه من شمائل لا تفارق ذاته ، فذلك مالا منصرف للنفس عنه من العشق ، أحر درجات الحب . . . وما

يصاحبه من الرغبة إنما هو بعض ارتباط الكيان كله بذات المحبوب وقد تلخصت فيها الدنيا بكل مقاصدها ...

أعبادة هى ؟

ما أحراها أن تكون كذلك ، وقد خلصت لها النفس من دون الأشياء جميعاً ، فلو خيرت بين حياتها وحياة المحبوب ما تصورت لها حياة بدونه ، ولا ستوى لديها عندئذ الوجود والعدم .. إلا أن يكون الفارق بينهما أن الوجود مصاحب للشعور بذلك الوجد ، وإن العدم لا سبيل معه إلى ذلك الشعور ...

غير أن لى إلى جانب هذه الحياة التى استأثرت بها حبالة « رجيناى » كل الاستئثار حياة عقلية خالصة ، مطلبها الحق ، وديدنها تقديسه والتنويه به ، وغاياتها أن تقف نفسها على خدمته والدعوة له بكل وجه مستطاع ، سواء فى ذلك طريق الفكر أو طريق الفن ...

أ أقول كما قال المسيح « أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف ؟» (متى ٢٦ : ٤١)

لا أقولها ! لأن ما أشكو ضعفه ليس جسداً ، ولا هو من مطالب الجسد .. إنه روح أيضاً .. لأنه حب .

حب لا يعرف حدا يقف عنده ، لا لأنة يفتقر إلى حد ، بل لأنه مستوعب يتجاوز باستيعابه الحدود جميعاً .. فلا يبقى إلا وعى يقظ . وعى عاجز ، لأنه لا حول له ولا طول ، ولا يستطيع أن

يستخلص لإرادته منفذا إلا عن طريق ذلك الحب ، وذلك الحب قد أخذ عليه مسالك السبل جميعاً ...

و « رجيناى » لا تجهل هذا الوضع ، ولكنها تتخذ لنفسها مسلكاً آخر .

إنها لا تجهل حياة العقل والفكر والفن . وإنها لتحبها وتشارك فيها مشاركة غير يسيرة . ولكنها لا تخلص لها ، لأنها تحب « مناعم الحياة » ولا تستطيع عنها منصرفاً . تزهو بها وتزدهى ، ولا تتصور مطلباً أجدر منها بالسعى والحرص عليه . . وتذوى نفسها إن أعوزها ما تصبوا إليه ، ولا تطيق النزول عن شئ منه مختارة راضية النفس .

فكان لابد لرجل الفكر أن يتحول — فى معظم أوقاته ومعظم طاقته — إلى خائن متفسخ ، لا يسعى وراء الكفاف ، بل يكدح ليضمن لرجينا ما تروم وتشتهى . كلما هم فى ساعات كربه أن يبثها بلواه ، أعرضت فى لباقة وظرف ، أو تبالهت . تعده بالقصد . ولكنها لا تغير محور حياتها الذى تدور حوله .

أحبها لها ، وتحبنى لنفسها ...

وأدرك أنى مفرط فى واجبى الفكرى ، وأنى مضيع حياتى بما أتركه من تحقيقها كما أعى غايتها وحقيقتها المثلى ، وإنى باذل فى أغراض هابطة عارضة ما يخلق لى أن أبذله فى غاية الغايات

وأوجب الواجبات .. سادنا فى محراب الفكر والضمير ، وعاكفاً على شعله الحق والخير والفن أذكيها بروحى . ولكن دون ذلك وينفق الحمار !

أو لعله بغل ، فما أدرى — لعمرى — أيهما أنا .. ولكنى أعلم أنى أحدهما لا محالة !...

إنى لأحقر الجاه والمظهر والأناقة والرفاهة . ولكن من تغلى هذه السفاسف أغلى عندى من أن يطاوعنى قلبى على إكراهها على نهج لا تريده ، وإن لم تخالجنى ذرة شك فى أنها على ضلال !

أيقال إن الولد مجبنه ؟

إن هذا لصحيح .. وناهيك بمن تجتمع لها فى القلب منزلة الولد والأم والابنة والزوج .

أ أقول إن لها منزلة النفس ؟

شد ما جانبت الصواب ! فما أسهل أن يقسو المرء على نفسه أو يروضها بغير غضاضة . أما هى فتهون كل غضاضة فى سبيل مسرتها وصفوها .

ولو طاوعتنى نفسى على مطالبتها بما يرفع الضيق عنى والحرج عن وجدانى وضميرى وأنا أضمن منها الطاعة ومنها الحزم لما فعلت ! فأى قيمة لا يبذلها المحب لحبيبه تطوعاً بل استجابة لطلب أو استرحام ؟ قيمة العاطفة فيما يبذل عن انتشاء بالبذل ،

ولا قيمة على الإطلاق لما يكون مسايرة تتردد بين الإقدام والإحجام، أو بين الكراهية والحرج والانقياد .

ألا إن خير الود ود تطوعت

له النفس ، لا ودأتى وهو متعب !

وقد أسعدنى أن أتيح لها الفرصة لتعيش حياتها كاملة غير مقيدة بشئ غير دوافع طبعها وسجيتها ، فإذا دوافع طبعها وسجيتها لا تتغيا تمكينى من فرصة حياتى المثلى ، وإنها لشىء يستحق أن يحتشد له بأكثر من أجل واحد ، وأكثر من جهد واحد ، لوكان ذلك فى الإمكان ، فكيف بأجل واحد يبدد فى غير ما جعل له ؟..

أضعف هو ؟

قد يكون ! ولكنه ضعف مصدرة قوة فى العاطفة لا طاقة للإرادة بها ...

أحقارة هى ؟

قد تكون ! ولكنها حقارة نابعة عن أثمن ما فى الحياة وأغلاها من مشاعر .. .

أجل إنى لأحقر نفسى لانسياقها فيما تدرك خطله ، ولكن خطلا يرضيها أرجح وأحظى عندى من رشد يكدرها ..

وإنى وإياها كضار من السباع ذى بأس سحرته برقتها ظبية ، فسخر نفسه لخدمتها ، تكلفه أن يكون حماراً ترتحله فيصدع راضيا وتريده على أن يقضى وقته كله فى تسليتها وإضحاكها فينقاد ،

وحسبه من عوض عن مسخ طبيعته وضياع بأسه ضحكة سرور تطلقها ، وحسبه من كرب شبح سحابة ملالة أو كدر ترين على عينيها وقسماتها .. فكأنما الدنيا عندئذ أضيق فى عينيه من سم الخياط ! ..

وإنه ليعلم أن فرصة حياته واحدة ، وأنه مضيعها فيما لم يخلق له ، ولكنه لا يجد الجرأة على استنقاذ نفسه من هذه الربقة ، لأنه يجد فى استئساره لها حرية لا تدانيها حرية ، ويجد فى سعادتها قيمة تربو على كل ما فى حياته ٠٠ بل إنه يعلم أنه يخسر حياته الحقيقية فعلا فى سبيل مسرتها ٠ ولكن أين له عن ذاك ؟ لا أين ؟

وإنى لألتمس — وعبثا ما التمس — طريقاً يجمع بين الحسنيين ٠ وهيهات إلا أن يكون ذلك بتحول فى طبيعتها وتبدل فى دخيلتها ، بحيث تخدم الظبية الأسد وتعينه على أمره ، وتجد فى ذلك راحة نفسها وتحقيق ذاتها ، فلا تكلفه سعادتها أن يعيش خادماً لها ، ثقة منها بما تعرفه من تعلق قلبه بها ، حتى ما يملك من مقاليــد أمره شيئاً ٠٠

ولكن السعادة بسعادتها غير صافية ، وفى الصدر ضمير ، ولرسالة الفكر سلطان ٠٠ !

إنى لأحقر نفسى ٠٠ ولكنى لا أملك أن أتمنى زوال ذلك السحر المضروب على حياتى ..

وقصاراى — أنا الشقى — أن أتساءل : أمن الممكن أن تكون تجربة أعضل لإنسان من هذه التجربة ، مما عناه السيد المسيح عندما دعا الناس فى صلاته الجميلة الصافية أن يقولوا : « لا تدخلنا فى تجربة ؟ »

ربما .. ولكن ، وقد أدخلت فى التجربة ، لا أرانى — لعمر الحق — أتمنى لو لم أدخل فيها .. فماذا يبقى من نور فى حياتى لولاها ، وكانت ظلاماً حتى أشرقت عليها .. وحسبك من امرئ حرم كل حنان وإعزاز ، وابتلى بأم ليس أسوأ منها بين زوجات الآباء ، أن يجد فى ريحانه قلبه الأم التى لا حد لحنانها وإعزازها .. لولا الاستيعاب والاستئثار ، واختلاف المقاصد الذى قلب الأم الحانية ابنة مدللة ، مدلة بما وهبت من حب صاحبها الذى لا يعرف له ساحل ولا تسبر له أغوار .

وهكذا أجدنى مدركاً لا يستطيع ، وتائقاً لا يجرؤ على ما يريد . فلا هو راض بما أوتى ، ولا منصرف له عنه ولا غنى من كل سبيل ..

أ أقول بعد هذا أنى أخدم سيدين ؟

لست أدرى ! بل لست إخالنى .

فإنى لأخدم سيدى الأمثل ، أخدم الحقيقة والفن ما سمحت لى مطالب سيدتى الصغيرة أن أخدمها .. وتتقطع نفسى حسرات وأنا أنصرف عن خدمتها لأكفل لمن ملكت على أمرى بسمة رضا

ولحظة هناء .. وابذل احترامى لنفسى ورضاى عن حياتى بدافع الحب الدافق ..

ومن لم يحب لم يعرف الله (يوحنا ٤ : ٨)

وكل ما صدر عن الحب لا يمكن أن يكون من هاوية الهلاك مصدره ، أو إلى هاوية الهلاك منتهاه ..

وإنما هى محنة كل محب ، يريد أن يحقق حبه كل ما يتمنى ، ولكن الحب دائما أكبر من كل مستطاع ..

وحسبى فى احتراقى بمحنة هذا الصراع تزكية تطهر بها روحى وحسبى ذلك من غدير أمام ضمير لا يغفو ولا يغضى ..

وحسبى من نعمة أشكرها ، أن محنتى مصدرها مصدر كل ثراء لروح الإنسان ، ومعدنها معدن النعمة الكبرى بين النعم المتاحة لأبناء الفناء .. وإنها لنعمة ما أحرانا أن نستزيد منها ، لاأن نطلب لها الفوات والانقضاء ..

وإنى بعد كل شئ لأرثى لها وأرق ، لأنى أحظى منها بهذا الحب . فدفء قلب العاشق يربو أضعافا مضاعفة على نعيم المعشوق..

* * *

وبعد ، هذا حديث صاحبى المسكين قبل عشر سنين أو تزيد .

صلوا من اجله !

بين المحبة والحب

نوجز الفارق بين المحبة والحب فى كلمة واحدة :

أن الحب « علاقة شخصية » . أما المحبة فسجية فى المحب تعم ولايخص . وكما أن النور سجية فى الشمس ، كذلك المحبة سجية فى قلب المحب المطبوع .

وقد يجتمعان معا ، فيكون الحب تخصيصا فوق « خلفية » أو « أرضية » عامة من المحبة . وقد يرتفعان معا فلا محبة ولاحب فى إنسان هو صورة مموهة من الحيوان .

ولابد فى كل منهما من سمات مشتركة ، أخصها « اتقادالعاطفة والحماسة والحرارة » ... فلا يتصور حب أو محبة على فتور أشبه بعدم الاكتراث فكلاهما عاطفة ، إماروحية خالصة أو مشوبة بالحس . ولكنها عاطفة على كل حال . وليس اتقاد العاطفة فى حد ذاته عيبا ، حتى فى المسائل الروحية ، بل هو فضيلة العاطفة التى بها تتجلى فى الوجود .

ومن يقرأ كلام السيد المسيح ، فى أى موضع منه ، يلمس تلك الحرارة ، التى تصل إلى ما يشبه اتقاد الجمر واندلاع ألسنة اللهيب ، فى الموعظة على الجبل ، أو وهو يدمغ المرائين ويندد بهم .

فالمحبة والحب كلاهما عاطفة حارة بل متقدة . وتقاس شدة كليهما بمقدار مافيها من اتقاد . أما العاطفة الفاترة فما أشبهها بالعاطفة

الميتة ، لأنها غير مكترثة بموضوعها أكتراثا كافيا . والبداهة تلهم الناس أن يتكلموا عن « نار المحبة » وعن « نار الحب » لاقتران كليهما بالحرارة الشديدة الأوار عندما يكونان فى أوجهما .

ولكن الفارق الحاسم بين نار الحب ونار المحبة ، أن نار الحب مركزة فى موضوع واحد ، هو المحبوب المعين دون سواه ، باعتباره ذاتا محددة . أما نار المحبة فلا يمكن أن تنحصر فى ذات محددة ، وتهمل من عداها . لأن المحبة كما قلنا آنفا تعم ولاتخص .

أمعنى هذا أن الحب والمحبة لا يجتمعان ؟

بل يجتمعان ، ولايتنافيان . فالمحب الذى تعمر قلبه المحبة وتفيض فيها بغير تخصيص ، أشبه بقوة الابصار التى ترى كل ماتنصرف إليه ، بغير عائق أو حاجز يحتجزها فى نطاق معين . أما الحب فأشبه بحاجز على العين يعوقها أن ترى الأشياء إلا واحدا لاتتجاوزه ، فهى منصرفة إليه وحده ، ومنصرفة — بالعجز لا بالاختيار — عن كل ماعداه .

أليس يوحى هذا بأن المحبة والحب ضدان ، إذا حضر أحدهما غاب الآخرة ؟

وهنا تتميز المحبة بسموها على الحب سموا واضحا :

فالمحبة تتسع للحب ولاتضيق به ، إذا كانت طبيعة قلب المحب ، كأنها الشمس فى إشراقها . أما الحب ، إذا كان هو الأساس فى قلب المرء ، فانه يضيق بالمحبة ويعجز عنها .

إن المحب الأعظم : السيد المسيح كانت محبته غامرة للخطاة قبل الأبرار (لأن المرضى بحاجة إلى الطبيب لا الاصحاء) ولكنه فى الوقت نفسه كان يخص أشخاصاً معينين بحبه ، فيوحنا يلقب بالحبيب ، ولعازر أيضاً موصوف بأن السيد المسيح كان يحبه ، و من أجله بكى عندما علم أنه مات . والحب هنا فى أصفى وأنقى واسمى صوره المنزهة .

فالقلب الكبير الذى معدنه وسجيته المحبة يتسع أيضاً للحب الطاهر . ولكنه إذ يخص أشخاصاً بالحب لا ينحصر فيهم بعاطفته وإهتمامه ، بل يفيض عنهم ويتجاوز أشخاصهم ليعم بمحبته الخطاة والأشرار والصالحين ، بحرارة متقدة وغيرة عظيمة .

فإذا تركنا النمط الأعظم للمحبة ، ونظرنا فى أحوال سائر البشر ، لوجدنا أنفسنا قد ابتعدنا عن ذلك الفلك السامى الذى تتوافق فيه نار المحبة ونار الحب بلا صراع . فالبشر العاديون ناقصون محدودو القدرة . وهنا المأساة ، أو هنا « بيت الداء » كما يقولون .

فى الفصل السابق « اعتراف إنسان متفسخ » رأينا مثلا بازرا لذلك الصراع الذى ميدانه وجدان إنسان مرهف الحس يقظ الضمير . ابتلى بالحب ، أو العشق ، لشريكة حياته أو توأم نفسه : وما أشبههما فى هذه الحالة بالتوأمين السياميين ، وهما التوأمان المتصل جسداهما فى جذعه ، بحيث تكون كتلة جسميهما واحدة

من الظهر ، ولهما صدران وأربعة أيد وأربعة أرجل ورأسان . وهى حالة نادرة فى عالم الأجسام ، ولكنها قد توجد ، مثلما يوجد بندرة شديدة أيضاً ذلك التلاحم بين الزوجين .

وأكبر نكبة تصيب التوأمين السياميين أن تكون منازعهما ومزاجاهما غير متشابهين تماماً ، فيميل أحدهما للسكينة والتأمل ، ويميل الآخر للحركة والنشاط وكثرة التنقل ! ولا فكاك لأحدهما من صاحبه . وكل منهما يحب الآخر ، بيد أن حب أحدهما بالذات لتوأمه أشد وأطغى .

فحال هذين الزوجين محنة لا نظير لها ابتلى بها ذلك الزوج المسكين الذى يؤرقه ضميره ويطالبة أن يقف نفسه كلها — لا بعضها — فى المقام الأول على رسالة حياته الفكرية والفنية ، فكأنه كما قال ذو الرمة :

هى السحر ، الا أن للسحر رقية
وإنى لا أرى لها الدهر راقيا

حتى لقد تمنى الراحة بأى ثمن :

فلا الحب يشفى من هواها صبابة
ولا حبها أن تنزح الدار ينزح

لئن كانت الدنيا على كما أرى :
تباريح من « مى » ، فللموت أروح !

ولكن الأمر على صاحبى المسكين — وهو هنا وسيلة الإيضاح

لإجتماع الحب والمحبة ـ أشد وأنكى فهو مرتبط بمن يحبها ، ويرى نفسه مسئولا أمام حبه عن إسعادها على حساب نفسه وراحته الشخصية ، ولا يرى فى ذلك مضاضة ، بل يرى فى إنكار ذاته لإسعادها منتهى سعادته كشخص . ولكن المأساة أو « بيت الداء » فى أنه ليس مجرد شخص عاشق ، وإنما هو أيضاً إنسان محب ، وموضوع محبته هو رسالة حياته الفنية والفكرية . إنه شمعة عليها رسالة الإضاءة لأكبر عدد من الناس ، لا أن تخص بنورها شخصاً محدداً دون سواه ، ولو كان ذلك الشخص محبوبته وتوأم نفسه وزوجته !

هنا « التفسخ » كما سماه هو ، بين مقتضيات الحب ومقتضيات المحبة ...

وهنا للسيد المسيح دعوة دامغة ، لا مهرب لذى وجدان منها ، ولا سيما من كان كصاحبي المسكين ذا إحساس شديد برسالة حياته :

يقول انجيل مرقس ، فى الفصل الثالث (عدد ٣١ وما بعده) :

« وجاءت أم يسوع واخوته (والاخوة فى الآرامية والعبرية قد تعنى الأقارب وليسوا بالضرورة أولاد مريم وهذا أيضا من معانى الأخ فى اللغة العربية) فوقفوا فى خارج الدار ، وأرسلوا إليه من يدعوه ، وكان قه تحلق حوله جمع كبير ، فقالوا له :

— إن أمك وأخواتك وأخواتك فى خارج الدار يطلبونك :

فاجابهم يسوع

— من هى أمى ومن هم اخوتى ؟ !

ثم أجال طرفة فى المتحلقين حولة وقال :

هؤلاء هم أمى واخوتى ! لأن من يعمل بمشيئة الله هو أخى وأختى وأمى ! »

ومثل ذلك ما جاء على لسان القديس متى فى بشارته ، فى الفصل الثانى عشر (عدد ٤٦ وما بعده) :

« و فيما كان يكلم الجموع إذا أمة وإخوتة قد وقفوا فى لخارج يريدون مخاطبته • فقال له أحد تلاميذه :

— ها هم أمك واخواتك واقفون فى لخارج يريدون مخاطبتك •

فأجاب وقال :

— من هى أمى ومن هم إخوتى ؟

ثم أشار بيده نحو تلاميذه وقال •

— هؤلاء هم أمى وإخوتى ! لأن كل من يعمل بمشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى ! »

كلام ناطق بذاته :

المسيح يحب أمه وذويه

ولكن محبة المسيح لرسالته أسمى وأقوى عنده بما لا يقاس ، ولذلك عندما نجم التعارض بين نداء الحب ونداء المحبة ، لم يتوان

عن الحسم ، بلا مواربة ، حسبما سار مثلا شروداً على مر الأجيال.

فالسيد المسيح له المجد ضرب لنا هذا المثل ليبين لنا كيف ينبغى أن نصنع كى تكون محبتنا كاملة ، أو لنكون كاملين فى المحبة . وأنه ينبغى كلما تعارض الحب والمحبة ، أن « ندوس على قلوبنا ، أى على حبنا إن تحتم علينا ذلك لنخلص لخدمة المحبة . أى للرسالات العامة التى لا يختص بها أشخاص معينون » .

وما أعسر ذلك على البشر الفانين ، أو كما قال ابن جريج :

وعسير بلوغ هاتيك جـداً

تلك عليا مناقب الأنبياء !

فالذى يحب شخصا معينا مغلوب على أمره ، إذا اشتد هذا الحب واستشرى ، حتى يصل إلى العبودية .

فكلا الحب والمحبة منح وبذل ، ولكن المحبة منح وعطاء بلا عبودية . أما الحب فعطاء فيه قليل من العبودية أو كثير . ويبلغ عذاب ذلك المحب غايته عند ما يدرك واجبه ، وتقصيره فيه ، ولا حيلة له مع ذلك لأن النقص البشرى يكبله .

ألم أقل لكم صلوا من أجله ؟

ولعله لمثل هذا الصراع الممض ، قال صاحب رسالة المحبة والسلام ، كما ورد فى بشارة القديس لوقا (١٢ : ٤٩/٥٣)

— جئت لألقى على الأرض ناراً ، وكم أرجو أن تكون قد

اضطرمت ! .. أوتظنون أنى جئت لألقى السلام عل الأرض ؟ أقول لكم لا . بل انقساما : فمنذ اليوم يكون فى بيت واحد خمسة . فيخالف ثلاثة منهم اثنين . واثنان منهم ثلاثة . يخالف الأب ابنه والابن أباه ، والأم بنتها والبنت أمها . والحماة كنتها والكنة حماتها ! ..

وهو ما ذكره القديس متى فى بشارته بالفصل العاشر (عدد ٣٤ وما بعده) :

— لاتظنوا أنى جئت أحمل سلاما إلى الإرض . ما جئت لأحمل سلاما . بل سيفا ! جئت لأجعل الابن يختلف مع أبيه ، والابنة مع أمها ، وزوجة الابن مع حماتها ، فيكون خصوم المرء من أهل بيته !

بل إن الأمر اشد من ذلك ، لأن الانقسام والصراع داخل نفس الإنسان أشد مضاضة وعذاباً ، والنصر فيه يحتاج إلى مدد علوى من قوة السماء .

وها هو السيد المسيح يقول فى انجيل متى بعد ذلك مباشرة :

— من أحب أباه أو أمه أكثر منى فلايستحقنى . ومن أحب ابنه أو بنته أكثر منى فلا يستحقنى !

ونجد هذه بعبارة موسعة فى انجيل لوقا ، فى الفصل الرابع عشر (عدد ٢٥ / ٢٦)

— من أتانى ولم يرغب عن أبيه وأمه وامرأته وبنيه واخوته وأخواته بل عن نفسه أيضاً ، لا يستطيع أن يكون لى تلميذاً !

فكل من لم يجعل محبة رسالته ، أو رسالة محبته ، مقدمة على حبه لكل ذويه ، بل حبه لنفسه ، فهو مقصر فى المحبة الكاملة وفريسة لعذاب الضمير .

إن المحبة ليس فيها اشتهاء ، وليس فيها نار الشوق والحنين بل المودة والترفق والرحمة والإيثار . أما الحب فما أشـــد نيران أشواقه !

إن المحبة قد تخص كل من تنصب عليهم ولكن بدون استحكار . أى من غير أن تكون حكرا أو احتكارا لأشخاص المحبوبين : أما الحب فهو استحكار محض للمحبوبين .

المحبة فيها غيرة شديدة على خير المحبوب ، وتتشكل أساليبها بحسب ما هو بحاجة إليه من فنون الخير ، ويبلغ من توقد غيرة المحبة أن تبدو فى صورة الغضب و النقمة ، من شدة الشوق لإصلاح حال المحبوب . أليس السيد المسيح خاطب من أراد إصلاحهم أحيانا بقوله : يا أولاد الأفاعى ؟ محبة لهم لا حقداً ، فحاشه أن يحقد !

والحب أيضا قد تكون فيه غيرته الشديدة على خير المحبوب ،

ولكن هناك فى الوقت ذاته غيرة شديدة على إرضائه . ومن هنا الصراع بين ما فيه الخير وما يجلب الرضا ، مما يجعل من ابتلى بالحب الشديد متقلب الأحوال موزعا بين عقله وهواه ، فلا تصفو سعادته بالحب أبداً ، لأن رقة قلبه وترفقه بل تدليله لمحبوبه يفسد عليه حزمه فى كثير من الأحيان .

فالمحبة مسئولية خالصة .

والحب نير وعبءٌ .

وما أشد ما تتشابه مظاهرهما على غير المدقق ، فلا عجب يختلط أمرهما على سواء الناس ، فيسمون الحب محبة ، والمحبة حبا . وهما فى الحالات القصوى ضدان نابيان فى القلب الواحد ، ومن تربة واحدة تغذو بذرتيهما ؛ هى الرقة ، وتقديم الآخر على الأنا .

ولكن المحبة تقدم كل آخر ، والحب يقدم آخراً معينا دون سواه .

ولابد لحسم الصراع بين المحبة النزيهة والحب المتحيز ، أن يتنبه الإنسان إلى سمو قيمة المحبة الموضوعية على كل قيمة ذاتية ، وقمة القيم الذاتية الحب ، كى تتحرر المحبة من عبودية الحب :

ولذلك من عرف نفسه حق معرفتها أدرك معنى قول بولس فى رسالته الأولى إلى قورنثوس (٣ : ١٦)

ـ إنكم هيكل الله وروح الله يسكن فيكم !

هذا هو الحق ، الذى يهدى إلى رسالة المحبة ويحرر من عبودية الذات التى تبلغ أقصاها فى عبودية الحب :

ـ وتعرفون الحق والحق يحرركم ! (يوحنا ٨ : ٣٢)

●●●

منازل كثيره

ليست المحبة أعمالا معينة محددة المعالم تمارسها فى أوقات معينة، فتكون قد وفيت بالتزاماتك ، كما يفى الممول بالتزاماته إذا أدى الضريبة المفروضة المحددة بموجب القانون ، فلا يكون لأحد سبيل بعد ذلك علية فى ماله ، ينفقه كيف شاء .

إن ديون المحبة أو الـــتزاماتها من نوع خاص . إنها ديون والتزامات مستغرقة لـكل ما فيك ، بحيث تستوعب جميع أعمالك فى جميـــع الأوقات ، سواء فى ذلك أعمالك الباطنة — من فكر ووجدان — أو أعمالك الظاهرة للعيان .

بلى إن أعمالك الظاهرة للعيان لا قيمة لها فى ميزان المحبة إلا بمقدار صدورها عن باعث المحبة وعاطفتها الخالصة المتقدة المستولية عليك

ومن هنا تسقط الفروض المحددة فى الشريعة أو الناموس . تسقط لا لأنة لم يعد لها لزوم فى حد ذاتها ، بل لأن المطلوب منك هو حياتك كلها لا تلك الأجزاء المحدودة منها والتى صارت أقل من أن يقام لها وزن . مثلها كمثل ضوء الشمعة الذى لا أثر له ولا حاجة إليه فى وضح النهار . فليس الاستغناء عن ضوء الشمعة حينئذ استغناء عن كل نور ، بل استقضاء للمزيد من النور . ألف ألف ضعف !

إن البر هذا ليس صلوات محددة بصيغ معينة فى أوقات ثابتة ، لا استغناء عن كل صلاة ، بل لأن الصلاة المطلوبة هنا هى اتجاه الإنسان بكيانه كله فى كل أوقات حياته إلى تحقيق ما صار يملأ قلبه من المحبة الشاملة . فكل فكرة مبعثها المحبة الصادقة صلاة حقيقية ، وكل عمل مبعثه المحبة الصادقة صـــلاة حقيقية . وكل ما يفيض من القلب على اللسان يصلح تعبيرا لفظيا عن الصلاة الحقيقية التى هى قلبية خالصة فى حقيقتها ، ولا قيمة للفظ إلا بمقدار ما فيه من روح يسكن القلب .

والمحبة الكاملة لا تكون إلا للكامل المطلق .

والله هو المتفرد وحده بالكمال المطلق .

أما نصيب الإنسان من الكمال فهو التكمل ، أى السعى الدائم نحو الكمال ونشدان المحبة الكاملة .

وبهذا المعنى الذى تتجلى فيه المحبة الكاملة مرادفة للمسيحية الكاملة ، لا يكون إنسان من البشر أيا كان مسيحيا بالاطلاق ، أى بالمعنى الكامل المطلق للمحبة ، وإنما قصارى كل واحد — مهما وهب روحه وطلب الكمال فى المحبه — أن يكون مسيحيا « على قدر امكانه » . وإمكان الكائن المحدود — مهما عظم واتسع — محدود حتما .

فالمحبة المطلقة المتحققة بالفعل هى الله المطلق الحق . ولا نقول إنه سبحانه المتحقق بل الحق الذى يحا كيه كل تحقق ، لأن التحقق صيرورة فى زمان .

أما محبة الانسان فمراحل ومراتب ومنازل ، لأنها صيرورة مستمرة وليست تحققا تاما بالفعل فى أى وقت .

ففعل المحبة إذن هو الشوق إلى المطلق لتحقيقة فى مجالات الفعل الزمنى : فكريا كان هذا الفعل أو وجدانيا أو ماديا . .

ولا يكون ذلك إلا إذا حدث انقلاب داخلى فى النفس، تتحول به الذات من الأنانية التى تستهلك غيرها ، إلى الإيثار — أو الفداء — الذى يستهلك الذات خدمة لغيرها ، وبلا حدود ، وبلا تفريق . .

ولا يتم هذا الانقلاب بفعل خارجى ، بل باكتشاف الحقيقة العظمى المطمورة فى النفس ، حقيقة العنصر الإلهى فى الإسان ، وأن الانسان « مولود لله » ، وأن هذا المولود مدفون فى قبر الجسد وقواه الحسية ، ويجب بعثه فى ذلك القبر ليقاومه ويخضعه ، ويجعله قصرا وهيكلا للروح ، برياضته ورياضة قواه الطبيعية لخدمة أغراض الروح .

وهذه هى القيامة الأولى .

هذه قيامة الروح من موت الجسد .

وبغير هذه القيامة أو هذا البعث لا تتم الولادة للروح ، وتظل الولادة بالجسد هى المسيطرة .

ومن ولد بالروح فقد ولد من عليين ، ومولودا للرب يكون ، ولا يرضى لنفسه فعلا كبيرا أو صغيرا لا يليق بمجد أبيه السماوى ، الذى هو محبة .

وليس من الضرورى أن يكون هذاالاكتشاف الباطن مصحوبا على الدوام وفى جميع الأحوال بوعى ذهنى ، بل قد يحدث فى أعماق النفس بدون وعى ، بفطرة سوية مطبوعة ، لا باستدلال منطقى متكلف . فكل من فى قلبه المحبة ، وكل مطبوع على المحبة ، فالله فى قلبه ، بصرف النظر عن كيفية حلول روح المحبة فيه . فالمعول كله على وجود المحبة فيه حقا وصدقا لا بالاسم فقط ، مملية عليه كل أفعاله باجتهاد شديد متصل .

والمحبة سلطانها مطلق ، كشمس الله التى يطلعها بلا تفرقة على الأبرار والفجار ، لأنها بطبيعتها تأبى هذه التفرقة . وها هو السيد المسيح له المجد يقول فى موعظة الجبل (متى ٥ : ٤٣ وما بعدها) :

— سمعتم إنه قيل فلتحب قريبك ولتبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم . باركو لاعنيكم . أحسنوا إلى مبغضيكم . وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم ويضطهدونكم ، لكى تكونوا أبنا أبيكم الذى فى السموات ، فانه يجعل شمسة تشرق على الأشرار والصالحين ، وينزل المطر على الأبرار والظالمين . لأنكم إن أحببتم الذين يحبونكم فقط فاى فضل لكم ! ألا يفعل حتى العشارون هكذا وإن رحبتم باخوتكم فقط فاى فضل لكم على الآخرين ؟ ألا يفعل حتى العشارون هكذ ؟ فكونوا إذن كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات كامل .

إن المحبة الكاملة — أو التائقة إلى الكمال — متى تأججت القلب تمردت على الأنانية الضيقة التى مصدرها قوى الجسد

الحيوية ، ورفضت تلك الحدود الأنانية بين العدو والصديق : لأن العدو أو الشانىء هنا خصم فى مصلحة دنيوية تخص الجسد ولا تخص الروح الذى هو محبة ، لأنه من الله .

وهكذا لا يكون العدو بالجسد عدوا بالروح ، وتسقط عنه صفة الخصم والمبغض ، لأن الروح محبة ، والمحبة لا تخاصم ولا تبغض ولا تحسد ولا تنتقم .

هذا بديهى . ولا خلاف عليه وإلا وقع المرء فى التناقض .

ومكلف الأشياء ضد طباعها

متطلب فى الماء جذوة نار !

ولكن أللمحبة شكل واحد لا يتغير فى جميع الأحوال ؟

والجواب لا .

بل إن المحبة دائمة التشكل ، لأنها كشمس الله ، تشرق إشراقاً واحداً على كافة الأشياء ، ولكنها لا تجعلها تبدو سواء ، بل تتيح لكل منها شكله الخاص به فى أجلى صوره .

كذلك المحبة : لا ترى الخير كالشر. حاشا ! وإن رأت البشر من تحت الخير والشر سواسية : إخوة لها بلا تفرقة. ومن يرتكب الشر منهم فهو أخ أحوج إلى كل الرعاية والترفق والرحمة والتبصير كى تنتشل روحه من ربقة الشر الذى هو نقيض المحبة .

وإذا نظرت بروح المحبة إلى إخوتك لا يمكن أن يستوى لدى محبتك مرض المريض وصحة المعافى . بل تفيض محبتك بصورة

أقوى ويرق قلبك غاية الرقة لأخيك المريض وتوليه اهتمامك إلى أن يبرأ من علته ، وتحزن نفسك ما لبث مريضا .

كذلك الأمر فى اخويك : إن كان أحدهما صالحا والآخر فاسقا. تضطرم محبتك فى قلبك غيرة على أخيك الخاطئ ، لأن روحه مريض وتظل تسعى فى علاج مرض روحه إلى أن يستقيم حاله وتستولى المحبة على عرش قلبه وتخمد فيه الأنانية وشهواتها ، وتتقد نيران محبتك بغضا وكفاحا لمرض روحه ، أشد من اضطرامها بغضا وكفاحا لمرض جسده من قبل .

وقد يلتبس الأمر على ذى النظرة السطحية فيحسبك تبغض أخاك الشرير لأنك تبغض الشر الذى ابتلى به . . وهكذا تتراءى المحبة المتقدة للسطحى أحيانا فى صورة البغض والعداء الشديدين !

ومن هذا القبيل ما اتقدت به غيرة السيد المسيح ، حين نعت المرائين بأنهم « أولاد الأفاعى ! »

أكان يبغضهم حتما من حيث هم أشخاص ؟

كلا ! بل رياؤهم الذى شوه روحهم هو ما كان السيد له المجد يبغضه أشد البغض . وهو إنما يبغضه غيرة عليهم وفرط محبة فيهم . .

— كونوا كاملين كما أن أباكم السماوى كامل !

وما عسى أن يصنع الأب ببنيه ؟

إن الصغير هو الأحب إليه حتى يكبر . والضعيف هو الأحب إليه حتى يقوى . والمريض هو الأحب إليه حتى يشفى .

ومن يحب أخاه أو ابنه لا يرضى له أن يكون قذر الثياب ، بل

يظل به ، وقد يرغمه إن اقتضى الأمر على أن يكون نظيفا . فالأحرام ألا يرضى له أن يكون ردئ الخلال والفعال والخصال ، بل يظل به — وإن عرضه ذلك لغضبه وسخطه ومقاومته العنيفة — حتى يغدو نظيف السريرة والسيرة .

إن المحبة الحقيقية ليست غايتها إرضاء المحبوبين . بل غايتها خيرهم وصلاحهم .

ولما كان الخير نسبيا ، على حسب حالة كل شخص ، فالخبز خير الجائع ، والماءخير الظامئ . ولكن الجوع والعطش الروحيين ، نتيجة الجهل أو الخطيئة ، أولى باهتمام المحبة من الخبز والماء .

ولهذا ليست الرحمة ، أو البر — وهما مرادفان فى المسيحية للمحبة أو هما من أوجه نشاطها الفعال — أن نعطى جوعانا كسرة خبز ، وعطشانا كوب ماء ، وعريانا ثوبا أو رداء وكفى ، بل إن فقراء الروح أولى بالاهتمام من فقراء الجسد .

وليس معنى هذا إهمال فقراء الجسد ، بل معناه أن ذلك ليس غاية المراد ، وإنما هو جهد المقل وأضعف الإيمان ، والإيمان لا يكتفى بالأضعف . هيهات !

ومن استطاع أن يعطى الأكثر وأعطى الأقل باطل محبته !

فالمحبة لا تعترف بالحد الأدنى ، ولا بأى حدود ، بل هى لا تكون كاملة إلا إذا كانت « بكل قلبك وكل قوتك وكل ذهنك » .

والسعى الدائب نحو هذا الكمال ، بشوق متقد ، هو فضيلة المحبة ، أو الفضيلة بالمعنى المسيحى .

لا تدخر فعلا فى وسعك من أفعال المحبة .. والرقيب على هذا هو ضميرك اليقظ . فإن إدخرت شيئا من ذلك فالويل لك من ذات نفسك ، أو « الأنا العليا » فيك إن أردنا اصطلاحا من اصطلاحات العصر الحديث .

بهذا ، وبهذا وحده ، يقوم ملكوت الله فى قلب المحب المجتهد فى المحبة ، المتقد شوقا لكمالها فيه ، هنا والآن !

« وفى بيوت أبى منازل كثيرة . »

ولكن ليس منها منزلة واحدة للمحبة السلبية التى يخالها الكثيرون صورة المحبة القصوى ، وإنهم لواهمون !

إن المحبة هى الروح مناضلا ومجاهداً فى سبيل التكمل ، بلا توقف ، وبلا هوادة !

أما القول أن المحبة هى ترك أخيك — وكل إنسان أخوك بالمعنى المسيحى بلا تفرقة على الإطلاق ! — سادرا فى خطئه وغيه ، مكتفيا باجتنابه اتقاء لشره ، فليس فى ذلك أى معنى من معانى الجهاد الذى تمليه المحبة ، والمحبة بطبيعتها متقدة غير فاترة ، فإن فترت خمدت جذوتها وماتت !

— أنتم ملح الأرض . فإذا فسد الملح ، فأى شئ يرده ملحا من جديد : إنه لا يعود يصلح لشئ إلا أن يطرح خارجا ويدوسه الناس !

— أنتم نور العالم ! لا يمكن أن تخفى مدينة مقامة على جبل . ولا يوقد سراج ثم يوضع تحت مكيال ، وإنما على منارة فيضئ لكل من فى البيت !

— فليضئ نوركم هكذا أمام الناس حتى يروا أعمالكم الصالحة فيمجدوا أباكم الذى فى السموات ! (متى ٥ : ١٣/١٦)

ألا من له أذنان للسمع فليسمع ! .

المحبة فى المحب نور لا يخصه وحده ، لأنه إن خصه وحده صار أنانية ، وهى عكس المحبة :

والشمعة تحترق لتضئ لغيرها . وكذلك المحبة تبذل أنانية صاحبها وتضحى بها لتضئ وتعم الآخرين ، ولا سيما الخطاة والمنحرفين عن سواء السبيل .

فالمحبة السلبية محبة مزيفة مموهة ، يخدع بها صاحبها نفسه ، وإنما هو فى الحق منتفع بادعاء المحبة ، ليسالم الشر ويهادنه ، تاركا أخاه المخطئ يهلك ، غير مكترث بهلاكه كى تنجو مصالحه الدنيوية من شره . . .

ومن هادن الشر ، هادن الشيطان :

ومن فى قلبه المحبة ، فالله فى قلبه ، ولا قبل له بمهادنة الشيطان . . .

لأن روح الله تحارب الشر ولا تهادنه .

وإذا تسمت الوصولية والنفعية باسم المحبة ، وتزيت بزيها ، فسلام على جميع القيم لأن ذلك تمام وطئها بالأقدام ، ومسخها فى القلوب والأفهام !

فالمحبة إذن هى أخلاق الفروسية : والمحبون هم فرسان الحق : فرسان الله الحقيقيون :

إنهم لا يحاربون مثل دون كيشوت طواحين الهواء، ولا يفتحون الأقطار والأمصار ، بل ميادين فروسيتهم وفتوحاتهم أو استشهادهم هي قلوب الناس وبصائرهم .

ليس أكبر همهم أن يمنعوا الشرير من فعل الشر ، ففعل الشر ذاته ليس خطيرا أحق الخطر إلا من حيث صدوره عن حب الشر والأنانية ، ولذا فأكبر همتهم إصلاح النفس التي تفعل الشر ، كي يقضوا على بذرة الشجرة التي تثمر الشر . لأن القضاء على ثمار الشجرة وهي قائمة حية ليس شيئا في حد ذاته ، فسرعان ما تنتج الشجرة ثماراً أخرى ، ويظل جهد القضاء على الثمار عقيما .

فرسان المحبة هؤلاء . أيمكن أن تترك جذوة المحبة المتقدة متسعا في تلك القلوب لمحبة شئ آخر ؟

هيهات !

إنهم في شغل عن كل شئ إلا هذا . وبذلك تكون المحبة الحقيقية رسالة حياة .

ولذلك يترك هؤلاء آباءهم وأمهاتهم وزوجاتهم وبنيهم وبناتهم وممتلكاتهم ، ليوقفوا وجودهم كله على رسالتهم الروحية .

يتركون كل هذا لا مخيرين ، بل مسيرين ، وقد استولى عليهم روح المحبة ، فصاروا ملك يمينها ، والعبد لا يملك شيئا ، حتى ذاته لا يملكها ، لأن نفسه وما يملك ملك لسيده .

وهكذا حين تبلغ قمة التحرر ، نجد الحرية الكاملة في منح أنفسنا

منحا كاملا ، فنصير عبيدا لطبيعتنا الجديدة التى قوامها أننا ملك الآخرين عن طريق المحبة ، اى عبيدا وخدما للآخرين .

هذه الحرية القصوى ، عبودية تامة ، ولكنها العبودية العليا ، التى تتم بها أكمل صفة للانسان : أنه « عبد الله » أى ملك خالص له ، أى ملك خالص لروح المحبة المستولى عليه هنا والآن ، فيقيم ملكوت الله فى قلبه على الأرض !

— بل عليكم أن يصير بالمحبة بعضكم عبيدا لبعض (غلاطية ٥ : ١٤)

ومن هاهنا رسالة التبتل !

— لأنه يوجد خصيان ولدوا على هذا النحو من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس . ويوجد خصيان خصوا أنفسهم من أجل ملكوت السموات . فمن استطاع أن يقبل فليقبل ! (متى ١٩ : ١١ و ١٢)

وهذا الأخير هو الخصاء المعنوى من أجل ملكوت السموات : فالروح التى تتملكها المحبة ، روح الله ، لا تتسع هيهات لشواغل الجسد ، ويضيع نداء الجسد وسط هدير العاصفة الروحية المحتدمة :

والخصاء المعنوى فطام عن لذاذات الدنيا أجمع ، من جنس ، وطعام ، وسلطان ، وثراء ، ومظهريات .

إنه ليس افتعالا ، وانما هو تحول .

وذلك هو التحول العظيم !

وكإشراق الشمس تسطع أنوار المحبة فترى بصيرة المحب

المناضل لانتصار المحبه كيف ينبغي أن يصنع ليغزو لها أفقا جديدا ونفوسا جديدة . وتتشكل الأساليب على حسب المواقف ، بدون نمطية جامدة . فمن له النور لا يحتاج إلى من يحذره من طوارئ الطريق . أما من ليس له فيحتاج إلى من ينبهه فى كل خطوة حتى لا يتعثر .

وأما من لم تستول المحبة على روحهم إلى هذا الحد ، فلم يوهبوا الرسالة التى بها يكونون « ملح الأرض . ونور العالم » . وإنما هم مصابيح متفاوتة الإضاءة ، يختلط نورها بالدخان كثيرا أو قليلا ، ويجتهدون على قدر طاقاتهم المتفاوتة فى مجاهدة أنفسهم ، أى مجاهدة سلطان هذا العالم عليهم وعلى قلوبهم .

وهؤلاء لا تكون فيهم جذوة المحبة — مهما كانت صغيرة — إلا إذا اجتهدوا أن يكافحوا سلطان العالم على نفوسهم ، ويحاربوا أنانيتهم . لأنهم بمقدار اجتهادهم فى ذلك تقاس المحبة لديهم ومنزلتهم فيها .

هؤلاء أيضا لابد أن يجتهدوا فى ذلك الخصاء المعنوى . حيث تكون المحبة فضيلة الروح وتحررها ، فيكون الخضوع للروح فضيلة الجسد . وبمقدار خضوع الجسد للروح ، وخضوع الأنانية الدنيوية للمحبة الباذلة تكون الفضيلة المسيحية لديهم ...

وبذلك تتعدد المراتب فى الخصاء المعنوى ، كما تتعدد المنازل فى المحبة ...

والمحبة روح حي ، فهى ككل كيان ذات نشاط ديناميكى تتغير مظاهره وغاياته المرحلية ، وليس لها ثبات إلا فى ينبوعها .

إن خير الآخرين أقصى خير متصور هو الينبوع أو المنزع ، بحيث يكون سلوك المحب متغيرا ونسبيا حسب الغاية المنشودة ووفق ظروف كل موقف . فما يكون دواء أو غذاء فى موقف قد يكون سما زعافا فى موقف آخر .

إذن لا محيص ولا غنى من الاعتماد ، عند ممارسة المحبة — أى طلب الخير للآخرين — على التمييز والفهم والبصيرة .

إن الخير يقاس خلقيا بمقدار صدوره عن روح المحبة . ولكن النية الصالحة قد تفسد فعلها البصيرة المطموسة .

ولا بأس أن أضرب مثلا بحكاية كانت مشهورة فى إقليمنا وأنا بعد طفل صغير :

قتل زوج امرأة ريفية فقيرة ، لا تملك إلا جاموسة ، وليس لها أهل ولا لزوجها عصبة يأخذون ثأره ، لأنهما كانا غريبى الدار فى الإقليم .

وذهبت المرأة فباعت جاموستها التى لا تعول فى معاشها بعد فقد زوجها إلا عليها ، وذهبت إلى شقى من محترفى القتل ، فوضعت المال بين يديه وقصت عليه قصتها ، فأخذته النخوة والأريحية ، وجمع أطراف المنديل الذى فيه المال ، ودفعه إلى يدها قائلا :

— خذى مالك ! سأقتل لك قاتله صدقة لوجه الله الكريم

فبكت المرأة فرحا وعرفانا لفضله (!)وأكبت على يده تقبلها وهى تقول بحرارة :

— أنت أطيب وأرق انسان رأيته فى هذا الإقليم !

وأعجب من هذا أن الناس تحدثوا بعد ذلك بما ينطوى عليه قلبه من رقة ورحمة !

وما من شك أن دافع إسداء الخير رحمة بهذه المسكينة المرزوءة قائم فى قلب ذلك الرجل .

ولكن ما من شك أيضا أن بصيرته المطموسة صورت له الخير تصويرا مشوها . ونسى أن الخير الجزئى قد يكون شرا من جانبه الآخر . أو كقول الفيلسوف الإغريقى القديم :

— الماء موت النار ، والنار موت الماء !

غاب عنه أن الخير الحقيقى لا يكون على حساب أحد ، ولا يؤذى أحدا ... وناهيك بالقتل !

فالمعول على البصيرة والتميز لخدمة المحبة ، ولا تكون البصيرة كاملة إلا إذا استتمت المحبة، لأن المحبة إذا استتمت أنارت البصيرة وكان الاجتهاد فى تحرى الخير الأتم هو صلاة الروح الصامتة !

وتراودنى نفسى أن أضرب مثلا آخر، برجل اشتهر بالولاية والصلاح عند كثيرين من أهل الريف ، لا برجل من محترفى الشر...

وكان أهل المنطقة يقصدونه للتبرك به : وكثر من بين التلاميذ من يقصدونه قرب الامتحان أو فى منتصف السنة وفى أيديهم ب المقررة ، فيفتح « الرجل الصالح » الكتب حيثما اتفق ،

ويردها إلى التلاميذ ، فيقع فى روعهم أن هذه الصفحات هى التى ستنصب عليها أسئلة الامتحان !

ولا نناقش شيئا من التفصيلات ، ولكن بحسبى أن أقول أنه على فرض « اطلاع » الرجل الصالح على الأسئلة ، فإن البوح بذلك للتلاميذ ليس خيرا على الحقيقة ، وإنما هو عملية « تغشيش » مقنعة بقناع شفاف جدا !

والتلميذ الذى يكثر الصلاة والصيام ويؤمن بهذه « الكرامات » ويفرح بها ليس صالحا تقيا على الحقيقة ، وإنما هو بمظاهر تقواه مساوم أو متسول !

إن الخير الحقيقى أن يرقى التلميذ إلى مستوى النجاح بجده واستيعابه وفهمه . أما « الاستيلاء » أو « اقتناص » النجاح بوسيلة عفونة فتسول وليس ارتقاء . والارتقاء درجة من الكمال ، أما التسول فدرجة من الهبوط . ومطموس البصيرة هو الذى يحسب المساعدة على الهبوط خيرا من الدفع إلى الارتقاء !

وهكذا لا بد للمحبة أن تكون نزيهة وموضوعية ، تقدس الحق ولا تقدس ما عداه ، كى تسعى للخير الموضوعى الذى يرقى بإخوتنا أجمعين ، ولا سيما الهابطين منهم والمنحرفين .

هذه هى المحبة المجاهدة .

أو هذا هو ما له القيمة كلها ويستحق أن يدعى :

— الإيمان العامل بالمحبة ! (غلاطية ٥ : ٦)

وفى هذا أيضا تتفاوت المنازل ، بمقدار تفاوت الطاقة والجهد المبذول ، وبمقدار البصيرة التى ترى وراء كل خير خيرا أتم وأرقى ، تصبو إليه وتتغياه .

وهكذا تكون فروسية المحبة والخير ...

وهكذا يكون الفرسان المطبوعون على الفداء ، لأن معدنهم معدن الشهداء المطبوعين ...

والشهيد المطبوع قد يرزق الشهاده فعلا ماديا ، وقد يرزقها معنويا ، حين يضحى لا بعمره ، بل بكل شئ ، حتى حسن سمعته ، فى سبيل إضاءة شمعة أمام بصائر الناس فى دياجير الدنيا وعماياتها ...

ألا من له أذنان للسمع فليسمع .

إن المسيحى هو « البطل الأخلاقى » . فارس ميدانه المحبة وغايته المستمرة أن يتفوق على نفسه فيها . وهو فنان بما هو بطل ، وفنه هو سلوكه وحياته .

ولا بطل ولا فنان بدون حماسة متقدة للفعل البطولى أو العمل الفنى .

ولنتذكر أن منازل المحبة تقتضى البصيرة لترتيب أنواع الخير ، بحيث تملى علينا المحبة الخير الأعظم ، ولو على حساب الخير الأقل .

من أجل هذا طلب السيد المسيح إلى تلميذه أن يتبعه ويترك مأتم أبيه ، وأن يدع الموتى يدفنون موتاهم .

إن البر بالأب خير ، ولكن خيرا أعظم منه بما لا يقاس أن يخدم حقل الرب ، ويبشر برسالة المحبه بين الناس جميعا .

وما يمكن أن يقوم به سواك أولى منه لديك ما لو تركته أنت لما نهض به أحد ...

ولنتذكر أن المحبة قد تتخذ عند الاقتضاء شكل العنف . أليس السيد المسيح قد طرد الصيارفة وباعة الحمام من الهيكل؟ إنها الغيرة المتقدة على هيكل الرب جرفت فى طريقها كل شئ ، لأن ماعداها يفقد وزنه إلى جوارها .

لنتذكر ولنتذكر ، حتى نترك لنور محبتنا العنان ، ولا نتهيب خدمة المحبة فى كل ما تمليه علينا ، بهداية من روح الله ، حيث روح الله هى المحبة الكاملة .

ألا من له اذنان للسمع فليسمع !

الزواج والتزاوج

من بين المولودين لله من صارت المحبة رسالة حياته بالإطلاق، فيضيع لديه نداء الجسد ، ولا تتحقق ذاته الحقيقية إلا بالتبتل .

وهذا خير له ألا يتزوج . لأنه لايستطيع أن يخص أسرته الصغيرة بما هو فيض مشاع لأسرته الكبيرة ، التى تضم جميع اخوته . أى جميع البشر .

هؤلاء يتركون الآباء والأمهات والزوجات والإخوة والأخوات والبنين والبنات ليتفرغوا لرسالة حياتهم . ولذلك فمن الأفضل ومن الرحمة بالآخرين ألا يرتبطوا بهم ارتباطاً لا يمكنهم الوفاء به ، لأن الوفاء به ليس فى طاقتهم .

ولكن ليس الجميع هكذا ، ممن استيقظت فيهم روح المحبة. فنيران المحبة درجات متفاوتة فى شدتها . ولدى القلة القليلة تبلغ ذروتها التى تطغى على نداء الجسد كل الطغيان ، فلا يسمع له صوت ، ولا تحس له نأمة .

أما غيرهم فيظل للجسد لديهم نداء مسموع . ولكن روح المحبة تروض هذا الجسد ، وتفرض عليه فضيلته ، وهى الخضوع للروح الممتلىء بالمحبة ، المتدفق بها .

هؤلاء يتزوجون ، ويعيشون حياة الأسرة ، وينجبون ،

وتكون لهم الزوجة شريكة حياة ، هى حياة المحبة العاملة ويكون لهم — بإذن الله — البنون والبنات .

وما يقال عن الرجل ، يقال أيضا عن المرأة . فمن غلبت لديها نعمة المحبة على نداء الجسد ، لا مناص لها من التبتل . ومن لم تصل لديها جذوة المحبة إلى هذا الاتقاد ، فنداء الجسد لديها مسموع ، ولكنه مروض للروح الممتلىء بالمحبة ، وهذه قادرة أن يكون لها شريك حياة ، هى حياة المحبة العاملة ، ويكون لها — بإذن الله — البنون والبنات .

وهذا هو الزواج ، شركة الحياة بالمعنى المسيحى ، حيث يقوم بين الزوجين ذلك « الرباط المقدس » :

وقداسة الرباط هنا ليست بالمعنى الذى خاض فيه بعض الكتاب ، وجعلوه عنوانا على بعض كتبهم ، رامين بذلك إلى القول بأن قدسية رباط الزوجية نابعة من نداء اللحم والدم ، ومن الارتباط بكل الجسد .

كلا !

إن المصدر الوحيد لكل قدسية هو روح الله : وبغيره لا قداسة لشىء !

والمصدر الوحيد لقدسية رباط بشرى أن يكون اتحاداً قلبيا ، بالروح . بالمحبة : بانعقاد النية على الاتحاد فى روح الله ، وعلى

حَية التخليد والتأبيد الذى لا رجعة فيه . مثلما يتحد الروح بالجسد عند الولادة الدنيوية ، فلا فكاك لهذا الاتحاد ما بقيت الحياة ، لأن قيام ذلك الاتحاد هو الحياة ، وانفصاله هو الموت .

وبذلك الاتحاد القلبى الروحى فى أتون المحبة المخلصة تم قدسية الارتباط . وهو ارتباط فى الله ، لأن الله فينا ما دامت فينا المحبة .

وبهذا يدعى الزواج « سراً مقدسا » ، لأنه سر معجز كسر خلق الحياة فى الجسد المادى سواء بسواء ... فبحضور الله فى قلوبنا ، وبقيامه فينا وقيامنا فيه ، وبانعقاد النية الصادقة القلبية أمامه تم الحقيقة الباطنة لذلك الرباط المقدس . والقدسية مصدرها باطنى قبل أن يكون مظهريا ...

بهذا ، وبهذا وحده يستمد الزواج قدسيته الحقيقية ، التى تمثلها المراسم العلنية . وبغير هذه القدسية الروحية الباطنة تغدو المراسم العلنية تزييفا على الناس ، وعلى أنفسنا ، وعلى الله الذى باسمه تم هذه المراسم ، لأنها تغدو ظاهراً يفتقر إلى الإخلاص القلبى والروحى .

وفى إطار هذا الاتحاد الروحى الربانى يكون كل من الزوجين عبداً للآخر ، يقدمه على نفسه ، ويقومان معا بخدمة المحبة العاملة نحو جميع الإخوة ، أى نحو جميع البشر ، ما وجدا إلى ذلك سبيلا .

وفى إطار هذا الإتحاد الروحي ، يكون اتحاد جسديهما تتويجه وتعبيرا ماديا عن اتحادهما الروحى المقدس . وبغير ذلك المدلول الروحى يكون اتحادهما الجسدى ليس زواجا بل تزاوجا فحسب.. ليس بالله . وليس من الله . وليس لله .

إن عنصر الجنس فى الزواج يكون تابعا لا قائداً : يكون خاضعا ومنفذا ، لا دافعا وباعثا .

ومثل هذا الاتحاد الربانى الروحى المقدس ، كاتحاد الروح بالجسم لقيام الحياة ، تأبى طبيعته أن تقبل فكرة الطلاق ، على نحو ما تأبى طبيعة النار أن تقبل الماء : لأن محافظة كل كائن على ذاته هى المبدأ الأول فى الطبيعة : وهذا الكائن الروحى الواحد الذى صاره الزوجان يأبى كل الآباء ما ينحل به كيانه وينعدم . وبالتالى لا يتفق معناه ومعنى الفراق أو الانفصام .

وقد يحدث خلاف : وقد يقع أحد الزوجين فى أخطاء كبيرة أو صغيرة ، على نحو ما يحدث للجسد أن يصاب بعلل مؤلمة . ولكن صاحب الجسد المريض يجعل همه كله فى علاج جسده لا فى التخلص منه ، لأن التخلص منه هو التخلص من الحياة نفسها !

وفى حالة الزواج الروحى الصحيح نجد المحبة — كما هى

موصوفة بحق فى رسالة بولس إلى غالاطية (٥ : ٢٢ وما بعدها) — أول ثمرات الروح التى هى « فرح وسلام وطول أناة ولطف وصلاح إيمان ووداعة وتعفف . . . فالذين للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات » فطبيعى أن المحبة تتحمل وتصبر وتفهم وتعذر وتصفح وتعالج ، أيا كانت العيوب والأخطاء والنقائص .

وكما أن الانتحار بسبب المرض غير مقبول ، كذلك التفكير فى الطلاق بسبب الخلافات غير مقبول .

إن امتناع الطلاق هنا لا يكون قهراً واستبداداً ، بل هو النتيجة الطبيعية التلقائية لقيام الاتحاد الروحى المقدس :

فإن نجم اتجاه إلى الطلاق فليس معناه أن النار تقبل الماء وتطلبه ، بل معناة أن النار المزعومة ليست ناراً ، لأن النار لا تطلب الماء ولا تقبله .

إن مجرد الرغبة أو التفكير فى الطلاق دليل حاسم على أن الذى عقد لم يكن ارتباطا مخلصا قلبيا روحيا ربانيا ، بل كان « تزاوجا » اتخذ لنفسه زوراً ورياء اسم الزواج دون حقيقته الباطنة !

إن ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان :

وما يطلب الإنسان تفريقه لا يمكن أن يكون الله هو الذى جمعه فى عالم السريرة والضمير .

ألا إن الزواج الحق لا يمكن أن يلحقه أى تفكير حقيقى فى الطلاق . وعلى من يطلبون الزواج المسيحى أن يحققوه بالفعل فى أعماق قلوبهم وبكل روحهم ، مدركين حق الإدراك أن الزواج فى حقيقته اتحاد روحى وليس مجرد تعاقد على ارتباط جسدى ، لأن هذا يكون تزاوجا لا زواجا :

فليس فى شريعة تحريم الطلاق عيب أو تعسف . لأن هذا هو مقتضى مفهوم الزواج المسيحى المقدس بقدسية الله الذى هو محبة . بل العيب والاجتراء فيمن يقدمون على الزواج المسيحى بالاسم لا بالفعل غير مدركين معناه الروحى الجليل ، بل الرهيب !

وأقول « الرهيب » وأنا أعنيها !

فالزواج أرهب خطوة يمكن أن يقدم عليها إنسان مسيحى يدرك مغزى الزواج فى المسيحية ويدرك الفارق بينه وبين التزاوج . فهى خطوة لا رجوع فيها : كخروج الجنين من بطن أمه ، لا عودة له إليه مدى العمر ! وعليه أن يستقبل كل ما يواجهه فى الدنيا بلا نكوص .

أما التزاوج فليس اتحاداً باطنا . بل هو استحسان واستملاح ، ومن وراء ذلك باعث الرغبة الجنسية ، أو المصلحة الاجتماعية ،

أو المنفعة الشخصية أياً كان نوعها . فالتزاوج علاقة « برانية » وليست « جوانية » كالزواج . وماأشبهه بعقود المعاملات التجارية .

ومثل هذا الارتباط « البرانى » من الطبيعى أن يقبل فكرة الفسخ ، لأن الارتباط بالتزاوج ليس غاية فى ذاته ، بل هو وسيلة أنانية للراحة أو اللذة أو المصلحة . فإن انتفى الغرض أو استنفدت الوسيلة أغراضها ؛ فالمعقول نبذ تلك الوسيلة .

قد تشترى السيارة الفارهة وأنت شديد اللهفة على امتلاكها . ولكنها ليست غاية فى ذاتها بل وسيلة للراحة والمتعة . فإن فسدت السيارة بعد حين قصير أو طويل وتعذر اصلاحها فالتصرف المعقول هو التخلص منها .

إن الطرف الآخر فى التزاوج مجرد وسيلة ، وليس غاية فى ذاته . والوسيلة فمهما عظمت قيمتها فهى أداة لا محل للإبقاء عليها متى بطل الغرض منها بغير أمل فى تحقيقها إياه .

أما فى الزواج فليس هناك طرفان أصلا ، وإنما هما واحد بعملية اتحاد روحى يلغى كل ما سبقه من معنى الثنائية • ولن يقوم الزواج على الحقيقة الا اذا شعر الزوجان حقا وفعلا فى أعماق قلبيهما أنهما واحد بلا انقسام ولا انفصام • فذلك أول علامة لقدسية الزواج ، وبدونه تنعدم قدسيته •

وما دام هناك واحد « وليسا بعد اثنين » فكل تفكير فى التفريق انما هو بمثابة محاولة شطر انسان واحد شطرين . . .

فليعرف كل واحد نفسه ، وليواجهها بصدق ، حتى لا يتزوج الا الزواج الحقيقى . . . وعند ئذ تتلاشى مشكلة الطلاق ، لأنه لا محل لتجارة المنافع واللذات الأنانية فى عالم المحبة .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

فى دنيـــا البشر

السيدان

ما من خادم يستطيع أن يعمل لسيدين . لأنه إما أن يبغض أحدهما ويحب الآخر ، وإما أن يلزم أحدهما ويزدرى الآخر . فأنتم لا تستطيعون أن تعملوا لله وللمال .

وهكذا قال السيد المسيح فى إنجيل لوقا البشير . فى الفصل السادس عشر (عدد ١٣ ، ١٤) .

وجاء فى رسالة القديس بولس الأولى إلى تيموثاوس (٦ : ١٠) :

ـ حب المال أصل جميع الشرور ، الذى إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان و أصابوا أنفسهم بآفات كثيرة .

وفى موعظة الجبل يقول السيد المسيح كما جاء فى بشارة القديس متى (٦:١٩/٢١) :

ـ لا تكنزوا لأنفسكم كنوزا فى الأرض ، حيث يرعى السوس والعث وينقب اللصوص فيسرقون . بل أكنزوا لأنفسكم كنوزا فى السماء ، حيث لا يرعى السوس والعث ، ولا ينقب اللصوص ليسرقوا .

ـ فحيث يكون كنزك يكون قلبك !

ويقول أيضاً فى إنجيل متى (١٩:٢٩) :

ـ ومن ترك بيتا أو إخوة أو اخوات أو أبا أو أما أو بنين

أو حقولا لأجل اسمى ينال مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية .

كل هذا واضح وناطق بذاته أن تعلق القلب بالمال يحول بين المرء وممارسة المحبة الحقيقية التى هى حياة البر والرحمة والإيثار .

ولكن فى مواضع أخرى من الإنجيل أقوالا للسيد المسيح عن الثراء وغنى الأموال ذات دلالة تكاد تقطع بتحريم الغنى أصلا ، وتندديه ، إذا ما أخذناها على ظاهر اللفظ . ففى إنجيل متى (١٩ : ١٦ / ٢٤) نقرأ هذا الكلام الصريح :

« وإذا برجل يدنو من يسوع فيقول له :

— يا معلم ! ماذا أعمل من الخير لأنال الحياة الأبدية ؟

فقال له المسيح :

— لماذا تسالنى عن الخير ؟ إنما الخير واحد .فاذا أردت أن تدخل الحياة الأبدية فاحفظ (أى التزم وتحر) الوصايا .

فقال له الرجل :

— أى وصايا ؟

فقال يسوع :

— لاتقتل • لا تزن • لاتسرق • لا تشهد بالزور . أكرم أباك وأمك . أحبب قريبك حبك لنفسك .

فقال له الشاب :

— هذا كله حفظت . فماذا يعوزنى ؟

قال له يسوع :

ـ إذ أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع ما تملكه وتصدق به على الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء . وتعالى فاتبعنى !

فلما سمع الشاب هذا الكلام مضى حزينا لأنه كان ذا مال كثير . فقال يسوع لتلاميذه :

ـ الحق أقول لكم : يعسر على الغنى أن يدخل ملكوت السموات وأقول لكم : لأن يدخل الجمل فى سم الخياط (الإبرة) أيسر من أن يدخل الغنى ملكوت السموات !

فدهش التلاميذ لهذا الكلام دهشاً شديداً . . » .

وليس هذا النص نسيج وحده . بل هناك أيضاً ما ورد فى إنجيل القديس لوقا البشير (١٦ : ١٩ / ٢٦) :

ـ كان رجل غنى يلبس الخز والأرجوان . ويتنعم كل يوم أبذخ التنعم . وكان رجل مسكين اسمه عازر منطرحا عند بابة قد تغشته القروح . وكان يشتهى أن يشبع من فتات مائدة الغنى . وكانت الكلاب تأتيه فتلحس قروحه . ومات المسكين فحمتله الملائكة إلى حضن إبراهيم . ثم مات الغنى ودفن ، فرفع عينيه وهو فى الجحيم يقاسى العذاب ، فرأى ابراهيم عن بعد وعازر فى أحضانه فنادى : « ارحمنى يا أبت إبراهيم ، وأرسل عازر ليبل طرف أصبعه فى الماء ويبرد لسانى . فإنى أعانى أشد العذاب فى هذا السعير » . فقال إبراهيم « يا بنى ! تذكر إنك نلت خيراتك فى حياتك ونال عازر بلاياه . أما اليوم فقد نال التعزية وأنت نلت العذاب .: »

فما القول الفصل فى أمر المال ، من ثابت ومنقول ، أى من نقود وعقارات ومساكن وحقول وأثاث وزينة ترف وبذخ وثياب تنعم : أحرام هو جملة أم حلال هو جملة ؟

والفيصل فى هذا هو إدراك لباب المسيحية : إنها حياة المحبة القصوى التى بها يكون الإنسان مولود الله .

لم يقل بولس إن المال أصل جميع الشرور ، بل قال إن « حب » المال أصل جميع الشرور .

إن الحرية ليست ذات قيمة فى ذاتها ، لأنها بذاتها ليست خيرا ولا شرا ، وإنما هى « المجال » الذى يتيح للمرء أن يمارس أفعاله ، وتلك الأفعال هى التى تكون خيرا أو شراً . أما أن صارت الحرية هى الغاية لذاتها فهذا هو ملكوت الأهواء ، وهو الانحلال بعينه !

كذلك المال : ليس خيرا فى ذاته ولا شرا . فإن صار غاية لذاته فقد انقلب سيد المرء ولم يعد خادماً له . ومتى صار المرء عبد لشهوة المال فحكمة حكم العبودية لأى شهوة على الإطلاق : أنه عبد لغير الله الحق . ذلك الحق الذى « تعرفونه فيحرركم » (يوحنا ٨ : ٣٢) .

أليس السيد المسيح قد طلب من ذلك الشاب الثرى إن كان ينشد الكمال أن يبيع كل ما يملكه ويعطيه صدقه للفقراء ؟

فلو كان المال فى ذاته شرا لما أمكن أن يطلب السيد المسيح إلى ذلك الشاب أن يقدم الشر لأحبائه الفقراء . والسيد المسيح هو القائل فى إنجيل القديس متى البشير (٧ : ١٠ و ١١) .

— من منكم إذا سأله ابنه رغيفاً أعطاه حجرا . أو سأله سمكة أعطاه حية ؟ فإذا كنتم أنتم الأشرار تحسنون العطاء لأبنائكم فما أحرى أباكم الذى فى السموات بأن يحسن العطاء للذين يسألونه !

وحاشا للسيد المسيح أن يطلب إلينا أن تكون صدقتنا بشىء هو فى ذاته شر ، فتكون كمن يطلب إليه إبنه أن يعطيه سمكة فيعطيه حية ، أو رغيفاً فيلقمه حجرا .. !

المال إذن أداة . إن فعلت به الخير والبر فنعما هو . وإن كان سبيلك إلى الشر ، فبئس الشىء هو !

فإن أحببت المال وتعلقت به ، سواء كنزته حيث يأكله السوس أو أنفقته فى ملذاتك الجسدية والمظهرية ، فذلك أصل جميع الشرور ، لأنه يصرف قلبك إلى أنانية مركزة ، ويبتعد به عن الإيثار والمحبة ، التى هى من الله ولله !

وما يقال فى المال المعدود المنقود ، يقال فى كل نوع من أنواع الملكية ، لأنها جميعاً ضروب من الأموال .

فكل ما كان أداة « لخدمة المحبة » فهو خير لا يداخله تحريم ولا تشوبه شائبة . وكل ما صرفك عن « خدمة المحبة » فهو شر ، ولاسيما حكة فى تحريمه على طالب البر ، لأنه يؤكد عبوديته للجسد وشهواته . وعلى حد تعبير القديس بولس فى رسالته إلى أهل روما (٨ : ٧) :

— لأن إهتمام الجسد هو عداوة الله !

بل أن بولس يقول فى تلك الرسالة صراحة :

— فإن الذين يسلكون سبيل الجسد ينزعون إلى ما هو للجسد ، والذين يسلكون سبيل الروح ينزعون إلى ما هو للروح . والجسد ينزع إلى الموت . أما الروح فينزع إلى الحياة والسلام .

ثم يزيد الأمر تحديدا فيقول بعد ذلك :

— ونزوع الجسد تمرد على الله . فلا يخضع لشريعة الله . بل لا يستطيع ذلك . والذين يسلكون سبيل الجسد لا يستطيعون ان يرضوا الله !

ويقول بعد ذلك أيضاً :

— إذا حييتم حياة الجسد تموتون . أما إذا أمتم — بالروح — أعمال الجسد فستحيون . إن الذين ينقادون إلى روح الله يكونون حقا أبناء الله !

وحب المال هو حب الأداة الرئيسية لعبودية الجسد والأنانية . أى حب ما هو نقيض المحبة أى نقيض الله . حيث الله محبة !

أما إن كان المال ليس « محبوب » المرء أو معبوده ، وكان أداة مسخرة للمحبة الحقيقية : لخدمة الناس وتفريج كرباتهم ، فهو ليس معبودا مطلوبا مصانا ، بل هو مبذول مستخدم . وهو إذن ليس حية بل سمكة . وليس سما بل ترياق للمريض . وليس حجرا بل رغيف للجائع .

ثم ان الأمر فى المال كالأمر فى الجنس : فمن استولت عليهم

المحبة لا يرتفع للجنس لديهم نداء ، ويتبتلون تبتلا طبيعيا هو التحقيق الطبيعي لذاتهم العليا . أما من هم دون ذلك فى المحبة فليست حياتهم حياة العفة والاتبتل ، بل يتزوجون وتكون لهم عفة الزواج ، التى هى أيضاً عفة فى بابها ومستواها ، داخل اطار المحبة ..

وكذلك الحال فى كل منازع النفس الحيوية ، ومنها طلب المال ، أى طلب الطيبات الدنيوية من ثابتة ومنقولة : فمن تشغلهم المحبة العظمى لا يرتفع لديهم نداء لمنزع دنيوى ، جنسى أو غير جنسى ، وكما يكرنون متبتلين فى الجنس يكونون أيضا زاهدين فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وفى كل شأن من شئون النعيم الدنيوى الذى يقتتل عليه أهل الدنيا ممن يحبون المال حبا جما :

أيقول قائل :

— ومن أين يأكلون ويعيشون ؟

إنهم عاملون فى حقل الرب للهداية الروحية : وكل عامل فهو مستحق أجره . فأجر هؤلاء كفافهم عند من يخدمون أرواحهم .

وأما من هم دون هؤلاء الصفوة فى مراتب المحبة ، فلا يتفق معهم الزهد الكامل ، كما لم يتفق معهم التبتل . ولكنهم أيضاً أهل محبة ، لا يمكن أن يحبوا المال ، بل هم يقهرونه كما يقهرون جسدهم ويروضونه لخدمة الروح .

هؤلاء يتعاملون بالمال ، وبالممتلكات ، ولكنهم لا يحبونها ،

لا يطلبونها لذاتها ، بل ليستخدموها فى « خدمة المحبة » .

هؤلاء ليس اهتمامهم بالمال : بالحصول عليه أو اكتنازه ، بل بإنفاقه فى البر وتفريج الكروب .

أما من « يكون المال والثراء همهم » فهؤلاء مثلهم مثل البذرة الجيدة التى سقطت وسط الشوك ، فى مثل الزارع المشهور الذى ضربه السيد المسيح فى إنجيل متى (١٣:٢٢) :

— وأما الذى زرع فى الشوك فهو الذى يسمع ذاك الكلام (كلام البر) ويكون له من « هم » الحياة الدنيا ومن « فتنة الغنى » ما يخنق الكلام فلا يعطى ثمرا !

« هم الحياة الدنيا وفتنة الغنى ! »

أما من ليست لهم من « أموالهم فتنة » فأولئك هم الناجون .

وأما من ليس همهم هم الحياة الدنيا ، بل هم الروح والمحبة فأولئك هم الخالصون لله :

أموالهم وممتلكاتهم ليست فتنة لهم : وزينة الحياة الدنيا ليست همهم : بل همهم المحبة والرحمة وفعل البر وصالحات الأعمال .

وهذا هو المغزى من وراء ماورد فى نص مرقس البشير (١٠ : ٢٣ / ٢٧) عند ذكر ما أورده إنجيل لوقا البشير عن الشاب الغنى الذى سأل السيد المسيح ماذا يفعل ليرث الحياة الأبدية :

فقال له يسوع :

— واحدة تعوزك (بعد حفظ الوصايا) :

إذهب فبع كل شيء تملكه وتصدق بثمنه على الفقراء ، فيكون لك كنز فى السماء وتعالى فاتبعنى .

« فاغتم الشاب لهذا الكلام ومضى حزينا ، لأنه كان ذا مال كثير . فأجال يسوع طرفه وقال لتلاميذه :

— وما أعسر دخول ملكوت الله على ذوى المال !

فدهش التلاميذ لكلامه » .

وكانت دهشتهم لأن الشائع يومئذ عند اليهود عموما أن الغنى « نعمة » من الله يخص بها عبده الذى غمره برضاه .

ويسترسل القديس مرقس قائلا :

« فأعاد يسوع لهم الكلام . قال :

— يا بنى . ما أعسر دخول ملكوت الله ! لأن يدخل الجمل فى سم الخياط (ثقب الإبرة) أيسر من أن يدخل الغنى ملكوت الله !

« فاشتد دهشهم وقال بعضهم لبعض :

— من تراه يستطيع أن يخلص إذن ؟

فحدق إليهم يسوع وقال :

— هذا شيء يعجز الناس ولا يعجز الله . إن الله على كل شيء قدير ! »

شيء يعجز الناس ولا يعجز الله :

فمن انتصر فى قلبه روح الله ، الذى هو محبة خالصة ، على

فتنة الدنيا وحب المال والممتلكات ، فذلك ينقذه الله ، ويكون ناجياً .

أما :

« من كانت له خيرات الدنيا
ورأى بأخيه حاجة
فأغلق أحشاءه دون أخيه
فكيف تقيم محبة الله فيه ؟ »

هكذا يقول القديس يوحنا الحبيب فى رسالته الأولى (٣ : ١٧)
وهو القائل أيضاً فى هذه الرسالة بصريح النص :

— وليس من الله من لا يحب أخاه (٣ : ١٠)

وهو القائل فى هذه الرسالة أيضاً (٣ : ١٤ و ١٥)

« نحن نعلم اننا انتقلنا من الموت إلى الحياة لأننا نحب إخوتنا !
ومن لا يحب بقى رهن الموت ! »

ويردف ذلك بكلمته المزلزلة الدامغة :

« من أبغض أخاه فهو قاتل ! »

لهذا :

« ما دمنا عرفنا المحبة بأن ذاك قد بذل نفسه فى سبيلنا :
فعلينا نحن أيضاً أن نبذل نفوسنا فى سبيل إخوتنا » ومن « بذل نفسه فى سبيل إخوته » بمقتضى المحبة التى ملكت علية قلبه بما هو مولود الله ، فهو من باب أولى يبذل أيضاً فى

سبيل إخوته ماله وما يملك ... ومن جاد بالنفس ، جاد قبلها بالنفيس .

ذاك لا تكون أمواله له ، كثرت أو قلت ، بل لإخوته ، وبذلك يكون هو وما يملك لإخوته ، لأن ذلك هو سبيل البشر أن يكونوا « خدام سيد واحد » هو الله .

ألا من له اذنان للسمع فليسمع !

العمـــل

حياة الناس فى الدنيا إما لهو وإماعمل . وسلوكهم فيها إما غش وعداء سافر أو مموه بالرياء ، وإما صدق ومحبة وإيثار وولاء .

أما اللهو والتلذذ والتعلق بالشهوات واللذائذ . الأنانية وعلى رأس أدواتها المال ، من حرام أو حلال ، فنظرنا فيه آنفا . .

فما القول فى العمل اذن ؟ أنترك كل عمل دنيوى لنتفرغ كلنا للعبادة ، زهدا فى الدنيا ومعرياتها؟ أم ان للعمل معنى آخر ؟

أول مايتبادر إلى الذهن أن الناس يعملون لكسب المال ، أو لكسب الجاه ، أو الارتقاءفى المناصب ذات النفوذ والسلطان . حتى أن من مفهوم العمل عند البعض أنه مطية المضطر لكسب معاشه ، وتشييد أو توطيد صرح مركزه المالى والاجتماعى ، ومن الناس من ينفى عن نفسه حاجته إلى العمل ، وقد أدركت فى صباى وشبابى الباكر من ينفون عن أنفسهم فى أنفة شديدة أن لهم مهنة أو حرفة . وإنماهم « أعيان » أى أصحاب أملاك ، يأكلون من غلة التراث الذى ورثوه عن آبائهم مخدين للراحة والتنعم . وفى الصين القديمة كانت علامة الرق أن يطيل المرء أظافره شبرا أو اكثر أو أقل ، علامة على أنه لم يستخدم منذ ولادته يديه فى شىء !

فهو الطاعم الكاسى بيد غيره ! إمعانا فى نفى « شبهة » العمل أو الحاجة إلى العمل .

وقد أدركت فى بكرة العمر بالصعيد الأعلى ، عند بعض العشائر ، من كانوا يمنعون أولادهم — لا بناتهم فحسب ! — من التعلم فى مدرسة أو فى البيت . فما حاجة أولادهم المكرمين إلى « فك الخط » وهم أولاد الثراة السراة ؟ حاشاهم أن يتعبوا أنفسهم فيما يغنى عن نصبهم وكدهم فيه كاتب يعمل لديهم قارئا ومدونا وحاسبا بأجر معلوم ، وفى فضل الله سعة كأنما فضل الله كله على المرء منهم أنه « جمع مالا وعددة » . أما العلم فليس فى نظرهم فضلا ، لأن المال أداة الجاه والسطوة والبغى ، أما العلم فكفى صاحبة وضاعة وقماءة — عندهم — أنه يبذل علمه لمن ينقده الأجر ! فهو بعلمه خادم والجاهل بماله سيد مخدوم !

وهذا المفهوم للعمل مفهوم دنىء يدل على تفكير دب إليه تعفن « الاستغلال » وقد صار أساس كل شىء !

ومتى قلنا « الاستغلال » فقد قلنا التنافس الأنانى إلى حد التكالب والتناحر ، حتى يغدو شعار الناس كما قال الشاعر اللاتينى القديم « الإنسان ذئب لأخيه الإنسان » والعياذ بالله من البلاء !

وإنا لنستعيذ بالله من هذا البلاء ، لا لأنه موشك أن يتهددنا ، بل لأن البشريه غارقة فيه حتى الآذان منذ دب البشر على ظهر هذا الكوكب . . .

والتنافس والتكالب والتناحر على الدنيويات سبب الحسد والدسائس والفتن والحروب الغش والخداع والرياء .

والاستغلال السافر أو التحايل عليه مصدر الشر فى العمل الدنيوى لأنه فرط أنانية. والأنانية نقيض الإيثار والمحبة ، فهى بغض وكراهية تصل بالمرء إلى حد افتراس أخيه على الحقيقة أو على المجاز .

والبغض السافر الذى يصل إلى المجاهرة بالعداء وشن الحروب بين الأفراد والجماعات أهون انواع السلوك شرا : لأن العداء السافر معلن لا خفاء فيه ، أما حين يقترن بالدناءة فهو عداء مموه يقوم على الإيقاع والخديعة والاستغفال والتغرير .

ولذلك كان الرياء أدنأ أنواع العداء : فهو يدخل على الناس من مدخل البر أو الحب ، مموها بسماتة ، متنكرا فى شياته .

ولئن كان « من أبغض أخاه فهو قاتل » كما يقول القديس يوحنا فى رسالة الأولى (٣ : ١٥) فان الرياء قد استحق من السيد المسيح له المجد أن يقول فيه أوجع ما قاله على الإطلاق .

ولنأخذ النموذج البارز من انجيل متى ، فى الفصل الثالث والعشرين ، حيث يخاطب قمة الرياء فى شخص الكتبة والفريسيين المتظاهرين بالبر فى كلا مهم من غير بر حقيقى بأعمالم . ولكن كلامه عنهم لاينصرف إلى الكتبة والفرنسيين وحدهم وبالذات ودون سواهم بل إلى كل المرائين — افرادا وجماعات — ممن يتظاهرون

بالبر الكاذب ويقولون ما لا يفعلون . وعلينا ألا ننسى هذا كلما ذكرنا كلام السيد المسيح عن المرائين ، لكيلا يغيب عن أذهاننا أن كلامه هذا قد يكون منطبقا على اشخاصنا انطباقه على الكتبة والفريسيين :

يقول السيد له المجد فى الرياء والمرائين :

— أن الكتبة والفريسيين على كرسى موسى جالسون ، فافعلوا ما يقولون لكم احفظوه (أى اعملوا به دائما) . ولكن لاتفعلوا مثل أفعالهم ، لأنهم يقولون ولا يفعلون :

يحزمون أحمالا ثقيلة ويلقونها على أكتاف الناس ، بيد أنهم يأبون تحريكها بطرف الاصبع . وما من عمل يعملونه إلا لينظر الناس إليهم : يجعلون عصاباتهم عريضة وأهدابهم طويلة ، ويحبون المقعد الأول فى المآدب ، وصدور المجالس فى المجامع ، وتلقى التحيات فى الساحات .

ثم يوصينا قائلا :

— ليكن أكبركم خادما لكم . فمن رفع نفسه وضع . ومن وضع نفسه رفع .

وقد وضع السيد المسيح بقوله هذا معيار الفضل . وليس هذا المعيار التعاظم والجاه والترفع عن العمل . بل هو « الخدمة » . فأنت فاضل بقدر إقبالك على خدمة الآخرين .

والعمل الصادر عن المحبة التى هى « رباط الكمال » كما يقول

القديس بولس فى رسالته إلى كولوس (٣ : ١٤) أساس القيمة التى يستمد منها أى عمل قيمته . فكل عمل صادر عن المحبة فهو خدمة أى بر ، أما كل عمل لا تكون المحبة مصدره وباعثه ، فشيطان الأنانية وحب المال وحب الجاه والتسلط مصدره ، فهو إثم وشر .

ويسترسل السيد المسيح له المجد قائلا (متى ٢٢ : ٢٣ وما بعده) .

— الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ! تؤدون عشر النعنع والشبت والكمون (أى تؤدون من الشريعة أصغر الفرائض) بعد ما أهملتم ألزم ما فى الشريعة : ألا وهو العدل والرحمة والإيمان الصادق. يامن تنقون الماء من البعوضة وتبلعون الجمل !

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون : تطهرون ظاهر الكوب والصحفة ، وباطنها ممتلىء نهباً وطمعاً ! أيها الفريسى الأعمى ! طهر أولا باطن الكوب والصحفة ليصير الظاهر طاهراً مثله !

ويردف السيد المسيح ذلك بكلمته الدامغة الشرود :

— الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ! ما أشبهكم بالقبور المبيضة ، يبدو ظاهرها جميلا ، وأما باطنها فممتلىء من عظام الموتى وكل نجاسة . وأنتم كذلك تبدون فى ظاهركم للناس أبراراً ، وأما باطنكم فممتلىء رياء وفسقاً .

- أيها الحيات أولاد الأفاعى ! أنى لكم أن تهربوا من عقاب جهنم ؟

وهذا هو القديس يعقوب يقول فى رسالته (٢ : ١٤) وما بعده) .

- ما الجدوى أيها الاخوة إن قال أحدكم أن له إيماناً ولكن ليس له عمل ؟ أيقدر الإيمان أن يخلصه ؟

- هكذا الإيمان أيضاً ، إن لم يكن له أعمال ميت فى ذاته ...

- وبالأعمال أكمل الإيمان ...

- ترون إذن أنه بالأعمال يتبرر الانسان لا بالإيمان وحده . أليست راحاب الزانية قد تبررت بالأعمال إذ استقبلت الرسل وأخرجتهم من طريق آخر (فنجوا بحياتهم من أريحا كما يقول سفر يسوع ٢ : ١)

- فكونوا عاملين بالكلمة لا سامعين فقط خادعين نفوسكم بذلك .

- ومن أطلع على الناموس الأكمل ، ناموس الحرية ، وثبت فيه وصار لا سامعاً ناسياً بل عاملا بالكلمة فهو مغبوط فى عمله .

فالعمل إذن هو ثمرة الشجرة التى بذرتها المحبة والايمان بأنها الطريق إلى الله ، بالفعل لا بالقول فحسب .

والعمل فى « شريعة الكمال » التى هى شريعة المحبة ليس أفعالا معينة ، أو طقوساً ، أو « أتاوة » تؤدى لله فى حد محدود من

نشاط الانسان العملى فى الدنيا ؛ بل إن المحبة لا تقنع بأقل من « كل » أعمال الإنسان الظاهرة والباطنة ثمراً لها وملكا خالصاً ، بحيث تكون محور حياة الانسان فى كل ما يعمل .

إنه ليس زكاة محددة ، ولا صدقات يعطيها الفقراء فقط كأنه يزكى بها ويكفرعن باقى أعماله التى يتوهم أنه صار حراً فيها على هواه . كلا ! بل ان من يتقدس لله يتقدس بأكمله ، وبكل أعماله : فلا يستطيع أن يكون « مولود الله » بشق من حياته وأعماله ، وعبدا للخطيئة ، التى مصدرها شيطان الأنانية بأسلحته من مال ونفوذ وسلطان بشقه الآخر .

كلا وحاشا !

إن العمل هوكل ما تعمل ، فإما أن يكون كله للمحبه ، وإلا فهو فاسد . أترى الثمرة نصفها يتعفن ويبقى نصفها سليما ؟ أترى الطعام يفسد فى الاناء الواحد بعضه ويظل سائره صالحاً للأكل ؟ فهل بلغ الانسان — المفروض فيه أنه مولود الله ! — من هوان القدر بحيث يكون معيار صلاحه وفساده أقل من معيار صلاح الطعام وفساده ؟

ليس معنى هذا عصمة الانسان ، بل تمسكه بالعصمة فلا يعثر إلا لسبب خارج عن إرادته ، أو لسهو ، أو التباس فهم ، بحيث يظل القلب نقياً لأنه لم يتعمد الخطيئة ، ويكون نقاؤه هو الضمين برده عن خطئه وإقالته من عثرته .

ولعل هذا هو المعنى الذى قصد إليه القديس يوحنا فى (٣ : ٩) من رسالته الأولى :

— كل من هو مولود من الله لايرتكب الخطيئة لأن زرعة يثبت فيه ولايستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله .

فان كان الجسد له ضعفاته ، فليظل الروح دائما نشيطا ، وعندئذ :

— الذى يفحص القلوب يعلم ماهو اهتمام الروح ، كما يقول القديس بولس فى رسالته إلى أهل روما (٨ : ٢٧) .

والعمل الصادر عن المحبة لايكون بقصد استغلال الآخرين بل بقصد خدمتهم . وهذا هو ماينبغى أن يقصد من « كل » أعمال المرء الصالح الذى يدين بالمحبة .

والنمط الأمثل للحياة الخالصة فى كل أعمالها للخدمة ، هو حياة السيد المسيح له المجد ، وهو القائل فى إنجيل القديس متى (٢٠ : ٢٧ و ٢٨) :

— من أراد أن يكون عظيما بينكم فليكن لكم خادما . فان ابن الإنسان (يعنى نفسه) لم يأت ليخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين .

والخدمة الكاملة لاتعرف لها حدا تقف عنده دون بذل النفس ذاتها خدمة للآخرين .

ومعنى هذا أن كل عمل للإنسان المحب يجب أن يتجه إلى خدمة

الآخرين ، لا إلى استغلالهم ... سواء فى ذلك أعمال البر السافرة كالصدقات وما إليها ... أو أعمال المهنة أو الحرفة نفسها ، أو النشاط الاجتماعى والسياسى .

ألا يأكل العامل من عمله إذن ويقوت أولاده وزوجه ومن يعول ؟

بلى ! فكل عامل مستحق أجره كما يقول المسيح (لوقا ١٠ : ٧) ليعول نفسه ومن ياوذون به . وليس يكفى أن يقدم من أجره الصدقات كى يكون عمله صالحا برمته ، بل يجب أن يكون « الدافع » إلى العمل فى المقام الأول ليس الغنم أو الكسب الشخصى بل خدمة الآخرين . وذلك يتنافى مع أى استغلال سيىء لهم ...

يعمل الطبيب ، ولكن ليس لأن مداواة الناس وسيلة لتكسبه . بل لأن مداواة الناس هى المبرر الحقيقى السليم خلقيا وروحيا لنشاطه فى عمله . أما التكسب فيأتى فى المقام الثانى وبصورة شبه عرضية . وهو ليس مبرراً فى ذاته بل ضرورة لامفر منها فى معظم الأحيان ، بحيث إن وجد البار أنه بغير حاجة إلى التكسب من تطبيب الناس لما فترت همته فى تطبيبهم ، لأن هدفه الأكبر هو إسداء الخير إليهم وخدمتهم بقدر مايستطيع .

والزارع البار يكون دافعه الذى يملأ قلبه غبطة بعمله أنه لولا عمله بكل أخلاص واجتهاد لجاع الناس . فعمله « خدمة محبة » وليس مجرد وسيلة لكسب المال .

وعلى هذا المنوال يكون كل عمل بدافع «أن يخدم لا أن يخدم» كما يقول السيد المسيح عن نفسه . وبهذا ، وبهذا وحده ، يجد كل عامل — مهما كان عمله في حد ذاته متواضعا — رفعة روحية فى العمل الذى يقوم به ، لأن عمله بهذا الروح يغدو برا ورحمة قبل كل شىء وصلاة قلبية حقيقية لامجرد « تحايل على المعيشة » بكل مافى ذلك الوضع التحايلى من هوان وقماءة مهما بلغ الكسب !

وليست قيمة العمل أو شرفة الخلق فى وجاهته أو منظرا نيته ، بل فى الروح الذى تؤديه به ، بقصد محبة الناس وخدمتهم ، فليس المهم ماذا تعمل ، بل بأى روح تعمله . حتى ولو كان عملك جمع القمامة : تنظر إليه وتؤديه بما هو خدمة للناس ، فلا تعرف المرارة لحقارته ، لأنك بالمحبة جعلته عملا جليلا نبيلا .

ويجدر بنا أن نتذكر أن النمط السائد لدى ٩٩٪ من الوالدين شعاره فى تربية الأولاد وحثهم على الاجتهاد :

— اجتهد لتفلح وتنفع نفسك وتنشىء لك مكانة وثروة ؟

« أنفع نفسك » !

وياله من شعار رهيب يلصق بالعمل والجد والاجتهاد ! شعار هو والمسيحية على طرفى نقيض !

ألا إن الخلق المسيحى الحق هو :

— انفع الآخرين ! إلى حد التفانى ولاتفكر فى نفسك !

« الآخرين » بلا تفرقة ، فليس بعد « يهودى ولا سامرى

ولا يونانى ولا رومانى ولاحر . ولا عبد ولا أبيض .ولا أسود ولا ذكر ولا أنثى » ، إذا استعرنا أسلوب بولس فى التعبير ...

أنفع الآخرين ، واجتهد ، وليكن اجتهادك كله لنفعهم . أما نفعك أنت فذلك ما يجب أن تتركه للذى خلقك ، لأنه مسئول أن يرعاك . أما مسئوليتك أنت فليست عن نفسك ، بل عن سواك !

وكل عمل باعثه محبة الناس لا الأنانية فهو عمل مقصود به وجه الله وليس عملا دنيويا وإن بدا أنه كذلك .

والمسيحية « طريق » أى منهج ، وليست قوالب معينة تصب فيها أفعال الناس . وليست شقا معينا من الحياة . بل هى الحياة كلها : من جذورها حتى أصغر ورقة فى دوحتها .

أنت وماتعمل لله . والله محبة . وأنت وماتعمل للاخرين — لأن الأخرين جميعا إخوتك — الأحوج منهم إلى عملك فالأحوج ، وليس الأقدر منهم على شراء عملك فالأقدر .

وهكذا يكون كل ماتعمله خدمة للمحبة ، وبلا حدود إلا حدود طاقتك واجتهادك ، برا وصلاة حقيقية بالفعل لا بالكلام ، وبالقلب لا باللسان .

ألا من له أذنان للسمع فليسمع !

أنت وعـدوك ...

ولكن دنيا البشر هذه مزيج من الحمائم والصقور ، والبلابل والنسور ، فماذا يصنع المحب حين يواجه الضراوة والعداء والشرور ؟

هنا يتجلى الفارق بين أهل المحبة « أبناء الله » وبين أهل العداء والضراوة والإيذاء . وبضدها تتميز الأشياء .

إن كان أخوك — وكل إنسان فهو بلا تفرقة أخوك ! — يقف منك موقف العداء ، أو يشعر أنه عدوك ، وأنه يحقق ذاته بإلحاق الأذى وانزال الضرر بك . فهذا شأنه أو مدى رؤيته ذاته . فهل معنى هذا أنه قادر أن يحدث فيك تغييرا جذريا ، يحولك من الإشراق إلى الظلمة ، ومن المحبة إلى الكراهية ، ومن الخير إلى الشر ، ومن « بنوة الله » إلى بنوة الجسد ، أو بنوة الشيطان ، أو سلطان الظلام والشر أيا كان الاسم الذى تدعوه به ؟

هذه هي المسألة كما يقول هملت : أن تكون فى هذه المعضلة أو لا تكون . أن تنزل عن حقيقة ذاتك العلوية النورانية لتحاكيه فيصبح الشر شرين ، والظلام ظلامين ، أو تثبت آية النور فيك لآية الظلام فيه . فتنسخه وتزهقه ، فإذا هو زاهق !

فالمسألة بالنسبة للروح ، التى هى محبة ، مسألة بقاء أو فناء . لأن المعركة مع سلطان الكراهية المنبعث من الأنانية الجسدية

الحسية معركة لا وسط فيها : إما نصر هو الحياة ، وإما هزيمة هي الفناء والعفاء !

فماذا تفعل المحنة إزاء البغضاء ، وماذا يفعل المحب إزاء الأعداء؟

لننظر فى الاحتمالات النظرية للمسألة :

هذا التضاد بين الخير والشر يحتمل أحد ثلاثة مواقف : إما الهزيمة ، وإما المهادنة ، وإما النصر .

١ — أما الهزيمة فى المعترك ، فهى تسليم راية المحبة لجيش الكراهية ، والانضواء تحت رايته السوداء . ولذلك تنتكس أعلام المحبة ويطويها الفناء... وآية ذلك أن يقابل أهل المحبة العداء بالعداء ، والبغضاء بالغضاء : وأيا كان من يكتب له الظفر فى تلك الموقعة ، فالظافر فيها مهزوم ، والقاهر فيها مدحور ، والنصر فى الحالين لروح الكراهية والشر بعد أن دان له أبناء الله ، وخنقوا روح المجد فى قلوبهم تحت وطأة الغضب للأنانية ، ناسين أنهم بالإيثار يعيشون لا بالأثرة ، وبالروح كينونتهم لا بالحس والجسد .

وهنا الكارثة !

٢ — وأما المهادنة فهى تجنب مجابهة العداء علانية ، اتقاء لشره ، ومحافظة على مظهر المحبة ، مع إضمار الكراهية والسخط والحقد . ولايكون ذلك إلا فى حالة تفوق العدو الذى يواجهه المرء تفوقا ساحقا يجعل التصدى له مرادفا للانتحار أو الاندحار : ومثل هذه المهادنة ليست محبة ، وإنما هى حيلة العاجز ، والعجز هنا هو « العلة » التى تحدث عنها الشاعر المتنبي حين قال :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلة لايظلم !

فالمهادن الموادع هنا هو والعدو الباغى سيان ، لا فرق بينهما إلا فى القدرة على البغى أوالعجز عنه ، ولذلك قال بعض الشعراء المتأخرين

— لا يعف الناس إلا عاجزين !

فلا موادعة فى حقيقة الأمر ،ولامهادنة ، ولا تعايش سلمى ، أو ماشئت من الأسماء سم ما يكون بين الاعداء والأضداد من تظاهر بالتواء . وإنما هى « هدنة على دخن» ، هى عداء مؤجل، يتربص الفرصة للانقضاض ، فكلا الفريقين المتهادنين إلى حين من قبيل واحد فى باطن الأمر ، حيث تقاس الأمور بالنية لابالقدرة التى هى مقياس الظاهر : كلاهما من معدن الكراهية والبغضاء ، يريد أن يحقق ذاته بالضراوة والإيذاء ، سيان فى هذا العاجز منهما والقادر !

٣ — وأما النصر ، وهو الموقف الثالث والأخير ، فمقياسه أيضاً ليس بظاهر السلوك الذى مرجعة إلى القدرة أو العجز ، بل بباطن النية ، لأن المنبع أو الباعث هو معيار كل خلق حق .

ولهذا لايكون النصر للمحبة إلا بالثبات . بحيث لا يتحول موقف المحب الحق عن المحبة إزاء من يناصبه العداء فمهما أبغضه عدوه وآذاه ، ثبت هو على محبته إياه ، و يكفه ألا يرد الأذى

بالأذى ، بل أبى إلا أن يرد الإساءة بالإحسان . ولم يكفه أن يعفو عن إساوته ، بل أبى إلا أن يحقق معدنه — الذى هو محبة — فى عدوه الذى معدنه البغضاء ، « قل كل من يعمل على شاكلته » و « كل إناء بما فيه ينضح » .

يخاطبنى السفيه بكل قبح وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا !

أجل هو اختلاف المعادن ، والفارق الحقيقى بين الخلقين . فالشرير معدنه الشر . وهو يحافظ على ذاتة بفعل الشر . أما الخير (المحب) فمعدنه الخير والمحبة ، وهو لايستطيع أن يحافظ على بقاء ذاته إلا بفعل الخير أيا كان الموقف . وبغير هذا فإن طبيعة الأشياء تحكم على من يغفل عن إبقاء ذاته بالفناء . وبذلك يكون التوقف عن فعل المحبة فى أى ظرف وأى موقف بمثابة إنتحار، وسقوط من عالم الروح إلى عالم الجسد والموت ، شبيه بالسقوط الأول ، سقوط آدم . . .

بهذا ، وبهذا وحده يكتب النصر للمحبة ، أو روح الله فينا ؛ ويكون كل مفرط فى هذا التمسك بالمحبة فى جميع الظروف متخليا عن روح الله وهابطا إلى المستوى الأنانى الأرضى :

ومن يترك هذا تحت أى ظرف جريا وراء استثارة من إيذاء أو إساءة أو إهانة فهو بعد هذا أحمق ، كمن يلقى من يده جوهرة لانظير لها ليمسك بحصاة أو خرزة !

أقول إنه أحمق أو أبله ، لأن أى إدراك القيمة المحبة وإنها روح

الله ، والحقيقة الفذة لذات الإنسان العليا ، كفيل ألا يسمح للمرء مهما كانت الظروف بوضع هذا الروح فى كفة الميزان أمام الدنيا بكل ما فيها من صداقات أو عداوات فالموازنة فى حد ذاتها بلاهة وسفه ! ونسيان الفارق الجوهرى بين المحبة والأنانية الدنيوية وكل توابعها غفلة وعته . . .

وهذا هو « تقدير الموقف » أو « الحساب الإجمالى » النظرى لكل مواجهة بين المحبة والعداء . . .

ليكن عدوك من يكون ، وليفعل بك مايفعل ، فهو لك عدو ، ولكنك لست له عدوا ويجب أن يكون فعلك له دائما ، ولاسيما حين يؤذيك ويعاديك فعل المحب الذى يريد خيره ويسعى فيه جهده ، لأنه مهما كان لك مبغضا ، فأنت له محب !

فأنت لست عدو أحد ، بالغاما بلغ عداء أى أحد لك .

وهذا الموقف الطبيعى الوحيد الممكن لأبناء المحبة الحقيقية لا الاسميين ، أو أبناء الله هو الذى نادى به السيد المسيح له المجد ، فى كلماته القدسية التى ذهبت مثلا شرودا فى سمو الإيثار ، وظنها بعض الناس مبالغة وإسرافا ، فى حين أنها « الموقف الطبيعى الوحيد » الذى لا بديل له لمن معدنهم المحبة حقا ، وإلا كانوا متخلين عن هذا المعدن ، مصطبغين بصبغة أهل الدنيا ، لا أهل السماء ! وكانوا كمن ينتحرون روحيا انتحارا لا حياة بعده ولا رجاء ! وهم ليسوا من أبناء المحبة ، مهما نسبوا أنفسهم إلى المحبة ، لأن المحبة لاتكون باللسان ،

ولا بالشارة والعنوان ، بل بالفعل الناشط فى كل حالة ، وفى كل آن ، وبالأخص عندما تجابه بالإيذاء والشنئان ، لأنه « بضدها تتميز الأشياء » .

ولذا كان طبيعيا جداً أن تكون دعوة المحبة على لسان السيد المسيح فى إنجيل متى البشير (٥ : ٣٨ / ٤٢) حضا على ترك العداء والخصام بكل أشكاله ، وتحذيرا من مقاومة الشر بالشر :

— سمعتم إنه قيل « العين بالعين والسن بالسن » . أما أنا فأقول لكم « لاتقاوموا الشرير . من لطمك على خدك الأيمن أدر له الأيسر . ومن أراد أن يقاضيك ليأخذ ثوبك أترك له رداءك أيضا . ومن سخرك لتمضى معه ميلا واحدا إمض معه ميلين . من سألك فأعطه ومن استقرضك فلا تعرض عنه !

وفى كلمة واحدة : إقلب الرغبة فى الإرغام والقهر والأغتصاب من جانبه إلى طواعية فى نفسك وسخاوة وبذاك تتفوق روحك الفياضة بالمحبة على شهوة نفسه المهلكة !

ثم يمضى السيد المسيح له المجد إلى الذروة التى تتوج سلوك المحبة فى الفقرة التالية (متى ٥ : ٤٣ / ٤٨) :

— سمعتم إنه قيل « أحبب قريبك وأبغض عدوك » أما أنا فأقول لكم : أحبوا أعداءكم وأدعوا لمضطهديكم وأحسنوا إلى مبغضيكم فتكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، لأنه يطلع شمسه على الأشرار والأخيار ، وينزل غيثه على الأبرار والفجار . فان أحببتم من يحبونكم فقط فأى فضل لكم ؟ .. وإن رحبتم باخوانكم

وحدهم فأى شيء خارق فعلتم ؟ أو ليس الوثنيون يفعلون ذلك ؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم السماوى كامل .

أعسير بلوغ هاتيك جداً ؟

أجل ! ولا عجب ! فهى شريعة الكمال المطبوع النابع من القلب ، لا شريعة المشق المفروض من الخارج والمحتذى بالمحاكاة والتقليد .

والذى نادى بالشريعة أدرى بها . وشارع شريعة الكمال هو القائل :

— ما أضيق الباب وما أوعر الطريق المفضى إلى البر ... دون ذلك موت أول وقيامة أولى : موت عن حياة الجسد والأنانية الترابية ، وقيامة روح الله فى قبر الجسد ، قيامة يكتشف المرء أنه ولد بها الولادة الثانية ، الولادة من فوق ، وصار أبنا لله ...

وحيث المحبة الكاملة لاعدو ولا عداء ، مهما استشرت العداوة ومهما تكاثر الأعداء ، لأن روح الله — المحبة — لاينهزم إذا نحن تمسكنا به . فإنه إذا نحن ثبتنا فيه ثبت فينا . وبذلك نكون قد نصرنا روح الله حتى نصره على روح الشر ، فنكسب ذواتنا العليا وإن خسرنا العالم أجمع بما فيه ذواتنا الدنيا .

وذلك هو الفوز المبين ، مهما تراءى للناس أننا من الخاسرين .

« وإن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » في معركة هي « الجهاد الأكبر » ، فهي أحمى وطيسا من كل معارك القتال ، حيث هي معركة الروح ضد الأنانية مهما بلغت الاستثارة الجامحة والفتنه الشعواء والغواية النكراء .

وياله من إمتحان لايثبت فيه إلا الصادقون . سلام على الصادقين .

عينك وعين أخيك

فيض المحبة فى قلبك خليق أن يشرق على العالم كله ، فيصبغه بصبغتها ، وإذا كل من فى العالم موضوع لهذه المحبة المطبوعة فيك ، ويمتنع عند ئذ أن تكون عدواً لأحد فى هذا العالم ، مهما كانت كثرة أعدائك فيه . فمعنى أن تحب عدوك ، ألا يكون أحد فى نظرك عدوا تعامله معاملة الأعداء ، وإن عاملك هو بمنتهى العداء ..

عالم أخوة . ذلك هو عالم المحبة :

والمحبة ليست سلوكا نمطياً جامداً متقولبا ، بل هى انبعاث حى وسلوك « موظف » لخدمة إخوتك ، كل أخ منهم بحسب ما ينبغى له ولخيره . فالمحبة مرادفة للمسئولية عن الآخر ، مسئولية جادة ناشطة غيورا ، لا تنام عن خيره المادى والروحى معا ... وبذلك وحده نكون « أبناء الله » حقاً ، ويكون « الله مقيما فينا » على حد تعبير القديس يوحنا فى رسالته الأولى (٤ : ١١ و ١٢)

— أيها الأحباء ! إذا كان الله قد أحبنا هذا الحب فعلينا نحن أن نحب بعضنا بعضاً .

إن الله لم ينظر إليه أحد

فإذا أحب بعضنا بعضاً
أقام الله فينا وتمت محبته فينا
ونعرف أنا نقيم فيه وأنه يقيم فينا
بأنه وهب لنا من روحه .

وإذا كانت الخيرات المادية آية محبة ، وكان التقصير فيها نحو الأخ المحتاج إليها تخليا عن روح الله وتنكراً له ، كما يقول القديس يوحنا فى رسالته الأولى أيضا (٣ : ١٧) .

— من كانت له خيرات الدنيا
ورأى بأخيه حاجة
فأغلق أحشاءه دون أخيه
فكيف تقيم محبة الله فيه ؟ !

فمن باب أولى تكون الحاجات الروحية أنواعا من الخير أوجب من الحاجات المادية للجائع والعريان والمريض بجسده . . فجوع الروح ، وجهل الروح ، ومرض الروح ، هذه كلها التصدى لها أوجب من التصدى لحاجات الجسم . ومن باب أولى لا ترضى لأخيك — وكل إنسان بلا تفرقة أخوك ! — أن يكون شريراً ولا ظالما ولا أنانيا ، أى منحطا بروحه متمرغا فى الترابيات ، مخدر الضمير ، أو ميته . وتركك إياه سادرا فى غيه قسوة لا تقل عما وصفه القديس يوحنا بكنايته البليغة :

« أغلق أحشاءه دون أخيه الجائع . » لأن أمر القلب والروح أوجب من أمر المعدة والأحشاء !

إن السيد المسيح له المجد شفى مرضى كثيرين بمعجزاته التى لا نظير لها ، ففتح عيون العميان ليبصروا ، وأقام المقعدين ليحملوا سريرهم ويمشوا ... ولكن ذلك كله كان — على جلاله وخطره — فى المقام الثانى بعد معجزته الأساسية التى من أجلها جاء إلى العالم الدنيوى . فالعيون التى فتحها لتبصر طواها بعد ذلك وأصحابها تراب الأرض ، ولكن عين الروح التى فتحها لتبصر بنور المحبة عين أبدية لا يطويها الفناء ؛ وعين الضمير التى أقامها من سبات كالموت لن يعدو عليها عادى الردى ... لأن تلك المعجزة الروحية وصلت الإنسان بالله ، وجعلته ممثلا لنور محبته وكرمه على الأرض . ليكون كل عمل للمحبة فى دنيا البشر عملا ليس من أعمال الدنيا ، بل من أعمال ملكوت السموات ... يمجد الله ويشهد له .

وكل مقتد بالسيد المسيح — وهو لم يجىء إلى عالمنا إلا ليكون القدوة المثلى — يجب أن يهتم لروح أخيه مثلما يهتم لجسده . وأن يكون على قدر طاقته « أبا صغيرا » للكل كما أن الله هـــو الأب السماوى للجميع . والأب يهتم بروح ابنه وتهذيبه كما يهتم بجوع جسده وعطشه ومرضه .. ولا يهدأ له بال حتى يقيم منه ما أعوج ...

أجل إنك مطالب بمغفرة الزلات التى تبدو من أخيك فى حقك ، وهذه هى الصلاة الربانية تقول : (متى ٦ : ١٢) .

— واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا .

وها هو السيد المسيح يقول تعقيبا على ذلك (متى ٦ : ١٤)

— فإن تغفروا للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوى ، وإن لم تغفروا للناس لا يغفر لكم أبوكم زلاتكم .

وفى الفصل الثامن عشر من متى (٢١ وما بعده) نقرأ ما يلى :

ودنا بطرس من السيد المسيح وقال له :

— كم مرة يخطىء إلى أخى وأغفر له ؟ أسبع مرات ؟

فقال له يسوع :

— لا أقول لك سبع مرات ، بل سبعين مرة سبع مرات ! » .

(وهو تعبير مجازى معناه بالغا ما بلغ عدد مرات خطئه إليك) :

ثم يضرب السيد المسيح بعد ذلك مثلا لوجوب الصفح عن الزلات التى تخص أشخاصنا ، أو أنانيتنا الضيقة :

« لذلك مثل ملكوت السموات كمثل ملك أراد أن يحاسب

عبيده . فلما شرع فى محاسبتهم جيء إليه بواحد منهم عليه عشرة آلاف بدرة (والبدرة نحو عشرة آلاف درهم) ولم يكن عنده ما يقضى به دينه ، فأمر مولاه ببيع هذا العبد وبيع امرأته وأولاده وجميع ما يملك ليقضى دينه ، فجثا له العبد ساجداً وقال :

— أمهلنى أؤد لك ما على ؟

« فاشفق مولى ذلك العبد وأطلقه وأعفاه من الدين . ولما خرج ذلك العبد لقى عبداً من أصحابه عليه له مائة درهم فقط ، فأخذ بعنقه حتى كاد يخنقه وهو يقول له :

— أد لى ما عليك !

فجثا صاحبه يتوسل إليه قائلا :

— أمهلنى أؤده لك !

فلم يرض ، بل ذهب به وألقاه فى السجن إلى أن ينقضى الدين . وشهد أصحابه ما جرى فاستأوا منه كثيراً ، فمضوا وأخبروا مولاهم بكل ما جرى . فدعاه مولاه وقال له :

— يا عبد السوء ! ذاك الدين كله أعفيتك منه ، لأنك سألتنى ذلك . أفما كان يجب عليك أنت أيضا أن ترحم صاحبك كما رحمتك أنا ؟

« وغضب مولاه فدفعه إلى الجلادين ، حتى يؤدى جميع

ما عليه له . فهكذا يفعل بكم أبوكم السماوى ، ان لم يغفر كل واحد منكم لأخيه من صميم قلبه ! » .

من صميم قلبه !

لا بكلمة من طرف اللسان ، وما فى القلب فى القلب ، كما يفعل الأكثرون فى أكثر الأحيان ! فلا قيمة لشىء فى شريعة المحبة الا أن يكون صادراً من صميم القلب . أما ان خالف القلب اللسان ، فذلك هو الرياء الذى دفعه المسيح ولعنه أعنف اللعنات !

هذا هو الحكم فيمن يخطئون إلينا ، فيما يخص أنفسنا ولكن ما العمل فيمن يخطئون الى أنفسهم بالجور وسائر الخطايا التى تدل على سيطرة أنانية الجسد ؟

للمسألة حينئذ وجه آخر ، لا يكفى فيه الصفح ، لأنه يتجاوز ذواتنا وأنانيتنا الضيقة التى ينبغى أن ننكرها محبة لإخوتنا ، ولله .

فى هذا المعرض يقول السيد المسيح فى انجيل متى (١٨ : ١٥ / ١٧) .

ــ إذا خطىء أخوك فاذهب إليه وانفرد به ووبخه . فاذا سمع لك فقد ربحت أخاك ، وإن لم يسمع لك فاستصحب رجلا أو رجلين ، حتى تثبت كل مسألة لشهادة شاهدين

أو ثلاثة . فان لم يسمع لهما فأخبر الكنيسة بأمره ، فإن لم يسمع أيضا للكنيسة ، فليكن عندك كالوثنى والعشار .

ولدينا فى الرسالة الأولى من القديس بولس الى أهل قورنثس (٥ : ١) مثل بارز على خطايا بشعة من هذا النوع فى مجتمع تلك المدينة يومئذ :

— لقد شاع خبر ما يجرى عندكم من فاحشة ، ومثل هذه الفاحشة لا يوجد حتى عند الوثنيين ، فإن رجلا منكم يخالط امرأة أبيه . . . أليس الأولى بكم أن تحزنوا حتى يزال من بينكم مقترف هذا الفعل ! . . . أزيلوا الفاسد من بينكم !

فهذا هو حكم الأخ المسيحى الذى يفعل ما لا يمكن أن يتفق مع المسيحية ، التى قوامها الولادة من فوق ليكون المسيحى الحق محبا روحانيا ، ومولوداً من الله .

فعملية إزالة الفاسد ، وان ظل سادرا فى فساده ، ليست الا تنفيذاً مظهريا لما هو قائم فعلا فى باطن الأمر ، لأن مثل هذا لا يكون من أبناء الله على الحقيقة ، لأن المولود من الله لا يرتكب الخطيئة ، كما يقول القديس يوحنا ، ومن يرتكب الخطيئة بنفس راضية ليس مولوداً من الله . فهو غير مسيحى بالفعل ، وبالتالى تكون مسيحيته بالاسم فقط زيفا وبهتانا لا معنى لهما !

ولكن ما القول فيه ان وبخه ضميره وندم وتاب ؟

عند ئذ نتذكر قول السيد المسيح له المجد (لوقا ٢ : ٢٨٪٣٠)

— الحق أقول لكم : كل شيء يغفر لبنى البشر من خطيئة وكفر مهما بلغ كفرهم . أمامن كفر بالروح القدس فلا غفران له أبداً ، بل هو خاطىء خطيئة أبدية .

« قال ذلك رداً على زعمهم أنه — له المجد — فيه روح نجس » .

وبتر العضو الفاسد من الجسم عمل منبعه المحبة للكل ، وهى مقدمة على محبة الواحد .

وهنا تبرز مسألة :

كيف نوفق بين هذا الذى ذكرناه آنفا من توبيخ الخاطىء منا ، ومحاولة اصلاحه بكل وسيلة ممكنة ، وبين ماجاء فى انجيل متى (٧ : ١ و ٢) .

— لا تدينوا لئلا تدانوا ، فكما تدينون تدانون ويكال لكم بما تكيلون !

أو ما جاء فى انجيل لوقا (٦ : ٣٧) :

— كونوا رحماء كما أن أباكم رحيم ؛ لاتدينوا فلا تدانوا (لا يدينكم الله) . لا تحكموا على أحد فلا يحكم عليكم . اغفروا يغفر لكم .

إن الدينونة ودمغ الناس من شأن الله وحده أصلا . فمن التعدى على الله أن يدين الإنسان أخاه الإنسان . فالله وحده هو الذى يعرف « ما تخفى الصدور » ، وهو وحده علام الغيوب فهو وحده القاضى العدل .أما الإنسان فقصاراه أن يحب باجتهاد، والمحب عطوف لا يسارع للإدانة بغير معرفه ، بل يقدر الضعف البشرى ويتحرج من الحكم بغير علم كاف ، والعلم الكافى بسرائر الناس ليس لأحد غير الله . أما حب الإدانة للإدانة فمعناه ببساطة انتفاء المحبة التى هى عطف ورحمة وميل إلى تمهيد العذر للضعف البشرى . ولهذا كان النص على « معاتبة » الأخ الذى تبدو منه الخطيئة (لا الخطأ العارض فى حقك فذلك تغفره له طواعية بدون حساب) فلعل له عذرا وأنت تلوم ، وعسى أن ينبهه العتب من سباته أو غفلته فيرعوى ويندم ويتوب .

لعل عتبك محمود عواقبه

وربما صحت الأجسام بالعلل .

أما أن نترك من تبدو منه الخطيئة يتمرغ روحه فى أوحالها ، ويتلوث بأدرانها ، فليس ذلك فعل المحب الحقيقى .

أما إن لم يجد معه العتب ، ولم يفسر لك أفعاله السيئة تفسيرا يقنعك ، بل أصر على الخطيئة ، فهو إذن ليس مولود الله ، ويجب أن تستعين عليه بمن يشددون عليه النكير ، فإن لم يرعو أيضاً ، فلا حيلة فى تقرير الواقع فعلا ، وهو أنه ليس مولود الله ، لأن المولود من الله لا يرتكب الخطيئة كما يقول يوحنا .

مثل هذا المسيحى بالإسم لا بالفعل ، كافر بالمحبة التى هى روح الله فيه ، فلا يقيم الله فيه ، وهو من عناه السيد المسيح بقوله فى إنجيل لوقا (٤:٥) .

— ووقع بعض الحب على أرض حجرة رقيقة التراب ، فنبت من وقته لأن ترابه لم يكن عميقاً . فلما أشرقت الشمس احترق ولم يكن له أصل فيبس !

ومثل هؤلاء هم الذين يعنيهم بولس الرسول فى رسالته إلى هل روما (١ : ٢٥ / ٣٢) ، لأنهم لا يرعوون عن أى موبقة :

— قد استبدلوا الباطل بالحق الالهى ... ولهذا أسلمهم الله إلى الأهواء الشائنة ، فاستبدلت إناثهم بالوصال الطبيعى الوصال غير الطبيعى . وكذلك ترك الذكران الوصال الطبيعى للأنثى والتهب بعضهم عشقا لبعض ، فأتى الذكران الفحشاء بالذكران ، فنالوا فى أنفسهم الجزاء الحق لضلالتهم . ولما لم يروا خيرا فى المحافظة على معرفة الله ، أسلمهم الله إلى فساد بصائرهم فأتوا كل منكر . ملئوا من أنواع الإثم والخبث والطمع والشر . ملئوا من الحسد والتقتيل والخصام والمكر والفساد . هم مغتابون نمامون اعداء الله . شتامون متكبرون صلفون ، متفننون بالشر ، عاقون لوالديهم ، لا بصيرة لهم ولا وفاء ولا ود ولا رحمة . ومع علمهم بأن الله قضى بالموت على من يقترف مثل هذه الأفعال ، فهم لا يكفون عن فعلها ، بل يرضون عن فاعليها .

لا يكفون عن فعلها بغير حدود ، لأنهم يرفضون التوبة والرجوع إلى الله الذى يغفر بغير حدود . ويرضون عن فاعليها لأن بصائرهم الممسوخة صارت تستقبح الحسن وتستحسن القبح ، فهى محنة الروح والبصيرة التى لا تماثلها محنة .

ويقضى على المرء فى أيام محنته

حتى يرى حسنا ماليس بالحسن

ولا بد من استماتة فى العلاج ما بقى أمل فى شفاء أخيك . ولا يكون خلع إلا بعد يأس . ولكن رحمة الله لا تغلق بابها ، فمن تاب بأخرة من الوقت ؛ ولو بعد أمد طويل ، توبة حقيقية بندم حقيقى ، يقبله الله كما تقبل الخروف الضال الذى قال فيه السيد المسيح له المجد فى إنجيل متى (١٨ : ١٢/١٤) :

ما قولكم ؟ إذاا كان لرجل مائة خروف فضل واحد منها ، أفلا يدع التسعة والتسعين فى الجبال ، ويمضى ينشد الضال ؟ الحق أقول لكم أنه إذا وجده فرح به أكثر منه بالتسعة والتسعين التى لم تضل . وهكذا لا يشاء أبوكم الذى فى السموات أن يهلك أحد من هؤلاء الصغار .

ونحن صغار الرب وعياله وبنوه .. فلا يأس من علاج الأخ مهما استعصى مرضه وطال أمده .

ومن البديهى أن من يذهب لعتاب أخيه أو توبيخه ينبغى ألا يكون واقعاً فى مثل خطيئته . فذلك ما يأباه الطبع السليم على النحو الذى عبر عنه الشاعر القديم .

« لا تنه عن خلق وتأتى مثله »

ومن قبله قال بولس الرسول فى رسالته إلى أهل روما (٢ : ١ / ٤) .

— فلا معذرة لك أيا كنت ، يا من يدين ، لأنك تحكم على نفسك أنت وأنت تدين غيرك ، لأنك تعمل عمله ! .. أو تظن أنت الذى يدين من يعملون هذه الأعمال ويفعل مثلهم أنك تنجو من قضاء الله ، أم أنت تزدرى جزيل لطفه ورفقه وطول أناته ، ولا تعلم أن لطف الله يحملك على التوبة ؟

ومن قبل بولس قال السيد المسيح له المجد فى إنجيل متى (٧ : ٣ و ٤) .

— لماذ تنظر إلى القذى فى عين أخيك ولا تأبه للجذع فى عينك ؟ بل كيف تقول لأخيك « دعنى أخرج القذى من عينك » وها هو الجذع فى عينك !

ولكن ليس معنى هذا ألا ترى القذى فى عين أخيك ، وألا تحاول جهدك أن تخلص عينيه منه ، فإن ذلك يكون نقيض المحبة الحقيقية ، لأنك لن تهتم إلا بنفسك ، وتدع أخاك .

« كن فى حالك . والزم شأنك أنت . لا شأن لك بغيرك » قاعدة سارية بين الناس فى دنيا البشر ، ولكنها نقيض المحبة الحقة لأن المحبة معناها المسئولية عن الآخرين ، والإهتمام بهم ، على حساب نفسك الدنيا . أما ذاتك العليا فخيرها أن تهتم بغيرك

وترعاه من كل قلبك حسب ما ينبغى له ، فكيف تسكت على القذى فى عينه ؟ غير معقول أن يكون هذا هو مؤدى كلمات السيد المسيح ، ومن يظنون ذلك أشبه بمن يقولون « لا تقربوا الصلاة » من غير أن ينظروا فيما بعد ذلك من النهى .

إن بقية أمر السيد المسيح فى إنجيل متى (٧ : ٣و٤) وارد على أثر ذلك مباشرة (٧ : ٥) .

— أيها المرائى ! ابدأ بإخراج الجذع من عينك حتى تبصر فتخرج القذى من عين أخيك !

كن ملحا صالحا ، كى تصلح أن يملح بك ، لأنه إن فسد الملح فبأى شىء يملح ؟ لا يصلح إلا أن يطرح فيداس بالأقدام ! إن الفاسد لا يجوز له أن يكون مصلحاً أو معاتباً أو محاسباً ، وناهيك بالدينونة والعقاب !

أنظر إلى ما كان من أمر الزانية التى جاء ذكرها فى إنجيل يوحنا (٨ : ٣/ ١٤) .

« أتاه الكتبة والفريسيون بامرأة ضبطت فى زنى . فأقاموها فى وسط الحلقة وقالوا له :

— يا معلم ! إن هذه المرأة أخذت (ضبطت) فى الزنى المشهود (الثابت بالشهود) وقد أوصانا موسى فى الشريعة برجم أمثالها ، فانت ماذا تقول ؟

« وإنما قالوا ذلك ليحرجوه فيتهموه ، فأكب يسوع يخط بإصبعه فى الأرض ، فلما الحوا عليه فى السؤال جلس .

وقال لهم :

— من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ليكون أول من يرميها بحجر !

« ثم اكب ثانيه يخط فى الأرض ، فلما سمعوا هذا الكلام انصرفوا واحدا بعد واحد يتقدمهم اكبرهم سنا ، ولبث يسوع وحده والمرأة فى مكانها ، فجلس يسوع وقال لها :

— أين هم أيتها المرأة ؟ ألم يحكم عليك أحد ؟

« فأجابت

— لا يا سيدى !

« فقال لها يسوع !

— وأنا لا أحكم عليك . اذهبى ولاتعودى إلى الخطيئه ! »

« لاتعودى إلى الخطيئة ! »

هذا هو المقصود : التوبة والارعواء ، أى العودة إلى الله .

لا يكن همك الإدانة ، بل إصلاح أخيك والفرح بعودته إلى الله وإذا كان المسيح يطلب إلينا أن نصلح أنفسنا أولا ، فليس ذلك لأن إصلاحنا أنفسنا غاية الغايات ، بل لأنه مجرد وسيلة إلى إتقان إصلاح الغير ، برفق ومحبة وحنو . لأن «فاقد الشىء لا يعطيه » .

ومن أصلح نفسه حقا ، صارت بصيرته صافية ، ولم يسترح ويهدأ باله إلا إذا أصلح من يراهم واقعين فى الخطيئة .

وهذا هو الفيصل بين عينك وعين أخيك . ليست عينك خيرا من عين أخيك عندك ، بل أنت وعينك لأخيك ، فمن أحب أخاه أحسن خدمته ، ولم يفسد عطيته له ، ولذا يحرص على سلامة عينه لتكون خادما أمينا وعطيه صالحة لأخيه الذى يحبه من كل قلبه .

أما المستقيمون الأبرار من الإخوة فالمحب الحقيقى يفرح بهم ويكرمهم ويجلهم بلا حسد ، وإن كان لا يركبه الهم إلا بسبب الضال أو المنحرف .

●●●

هذا خبر أخيك الذى يشاركك العقيدة . فما خبر من لا يشاركك العقيدة ؟

إنه أخوك أيضا . لأن المحبة الكاملة لا تكون كاملة حقا إلا إذا لم تعرف التفرقه بين جميع بنى الإنسان . وكما يكون فى أبناء عقيدتك الصالحون والمنحرفون الفاسدون والحمقى الذين يخلطون عملا حسنا وآخر سيئا ، يكون مثل ذلك أيضا فى غير أبناء عقيدتك . وحذار أن تنسى مثل السامرى الرحيم ! حذار ! وشمس أبيك السماوى تشرق على الأبرار والفجار ، كذلك شمس محبتك لا تكون صادقة ما لم تشرق على أبناء عقيدتك وعلى غير أبناء عقيدتك على حد سواء ! لأن نور الشمس

لا يمكن أن يتغير بتغير ما يشرق عليه من الأشياء !

إن المحب معدنه المحبة ، وفعله لا يمكن أن يكون إلا خدمة المحبة ، بلا تفرقة .

وإن وقع من غير أبناء دينك ظلم أو تعصب فالطريق المسيحى الصحيح والوحيد فى مواجهة ذلك أن تبدأ فتحارب الظلم والتعصب فى نفسك ونفس أبناء عقيدتك — بالقلب لا بالمظهر فحسب ، حتى لا يكونوا مرائين ! — كى تحسن ويحسنوا إصلاح بواعث الظلم والتعصب لدى غيرهم . وبذلك تخرج الخشبة عن عينك أولا كى يتسنى لك أن تحسن إخراج القذى من عين غيرك .

إنك ببنوتك لله لا ترى فى أحد من البشر إلا صورة الأخ الذى تحبه وإن أبغضك ، وتكرمه وإن جار عليك . أما إن أبغضته كما أبغضك فلست إذن من روح الله . ولست إذن من المسيحية فى الصميم من لبابها الثمين وإنما أنت من قشورها الباطلة الزائلة . وأنت لا تمثل المسيحية حينئذ بل تمثل بها !

ألا من له اذنان للسمع فليسمع !٠

الله وقيصر !

« تآمر الفريسيون كيف يصطادون يسوع بكلمة يقولها ، ثم أرسلوا إليه تلاميذهم والهيرودسيين يقولون له :

– يامعلم ! عهد ناك صادقا ، تهدى الناس سبيل الله هداية صدق ، ولاتبالى أحدا ، لأنك لاتراعى مقام العظماء . فقل لنا : مارأيك ؟ أيحل دفع الجزيه إلى قيصر أم لا ؟

فشعر يسوع بخبثهم فقال :

– لماذا تحاولون إحراجى أيها المراءون ! أرونى نقد الجزية !

فأتوه بدينار فقال لهم :

– لمن الصورة هذه ؟ والكتابة ؟

قالوا :

– لقيصر

فقال لهم :

– أعطوا اذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !

فد هشوا لهذا الكلام وتركوه ومضوا » .

(متى ٢٢ : ١٥/ ٢٢)

وندع جانبا مسألة التآمر لإحراج السيد المسيح ، وننظر فى وصيته الشهيرة : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله !

إنها ليست حسن تخلص كما قد يخطر ببعض الاذهان وإنما هو إفحام لو بحثت عن وصية سواها أقرب منها إلى الحق والعدل وصميم دعوة المحبه ما وجدت .

فمن قيصر فى ذلك الزمان ، وفى كل زمان ؟

إنه ليس الحاكم الطاغية بالضرورة ، وانما هو الحاكم بالإطلاق ، أيا كانت سيرته .ولا يعدو الأمر أن يكون احدى اثنتين . إما حاكما مرضى السيرة ، أو ظالما .

فان كان قيصر مرضى السيرة فى حكومته ، فالتعاون معه واجب لأنه إنما يعمل ويحكم لخير العباد ، والضرائب التى يجبيها ليست أتاوة قهر وبغى ، بل هى الوسيلة لتدبير أمور الشعب اقتصاديا واجتماعيا ، ولأعمال الدفاع والأمن والخدمات المختلفة . ولا يعقل أن يتم هذا إلا بأموال تجبى ممن تصرف الميزاينة العامة لصالحهم . وبذلك يقضى العقل والعدل بوجوب أداء الضريبة .

أما إن كان قيصر باغيا غير مرضى السيرة ، فالمحب الحقيقى الذى يعيش المحبة ويسير فى الأرض سيرة ربانية جهد الطاقة ليس همه فى الحياة ثراء الدنيا وسلطانها ، بل يعيش ويعمل ليخدم الآخرين ، وبذلك يعطى ثمرات روحه وسعية لله ، لأن الله غاية شعوره ومسعاه . . وأما عرض الدنيا فهو لا يأبة له إلا عرضا ، ليتخذة وسيلة لنفع الناس . ولايكربه أن يعطى منه ما يطلب إليه أن يعطيه بغير مشاحنة . ومادام قيصر هو صاحب العملة المسكوكة

فليأ خذها كلما طلبها . ويبقى بعد ذلك للمرء ما جنى بسعيه من صالح الأعمال ، وهذا لا سبيل لقيصر إليه . لأن منبعه في القلب ، ولأن غايته الله ، ولأن وسيلته إسداء الخير للعباد . . .

وليس هذا سلبية ، وإنما هو تحديد موقف .

« مملكتي ليست من هذا العالم » (يوحنا ١٨ : ٣٦)

فمملكة الله سماوية ، وقائمة في قلوب السماويين الذين تملأ المحبة جوانحهم . ويعيشون في الأرض حياة روحانية تذلل الجسد لأغراض الروح السامية ، ولغايات المحبة الكاملة الشاملة .

فما لله ، هو عمل المحبة ، وهذا لا يمكن أن يكون مصيرة إلى أحد غير الله .

وأما السلطان في الأرض ، والسيطرة ، وأتباعها من الأموال والأتاوات والأجناد ، فتلك مملكة العالم ، وهي ليست مما يتجه بها إلى الله فلتكن لمن ينشدها كائنا من كان . فانما ذلك كله هباء في هباء ، وهو في نظر محب الله أهون من الهوان .

فان كان قيصر صالحا ، أى خادما للمحكومين ، فليأخذ منا ، وبغبطة نفس نعطيه ، لأن قيصر حينئذ اداة لله بما هو أداة للخير العام وما لقيصر يكون بهذا في نهاية المطاف لله . . .

وإن كان قيصر باغيا ، فما اهون شان البغى والبغاة ، وما أهون الدنيا الزائلة وما فيها من صراع ترابى على نفس محب الله ، فقيصر حينئذ منفى منبوذ من ملكوت الروح ، في دنيا المادة المزدراة .

أعالمان إذن ، احدهما لله والآخر لقيصر ؟

نعم ، ولا !

عالم الروح من مستوى غير مستوى عالم المادة ، وعالم المحبة من مستوى غير مستوى عالم الأنانية والتطاحن .

وفى قلب الدنيا الواحدة يعيش الفجار والضالون . أما الأبرار فيعيشون حياة الروح ولا تساوى حياة الدنيويين والفجار فى نظرهم جناح بعوضة . ومن طلب السلطان والغلبة فى الدينا تافه مثلها ، وهو أهون من أن يشغلوا أنفسهم بأمره ، ومن شاء من دنياه هذه شيئا فليأخذه ، فهى كلها غير ذات بال .

فهما عالمان أجل ، ولكن ليس معنى هذا أنهما سيان !

ومن شاء فليقل إنهما عالم حق وعالم وهم ، أو لعله شبه عالم ، هو عالم المادة والتطاحن عليها ، فكل مالم يسخر من عالم المادة للعروج إلى عالم الروح وتحقيقه فى الشعور والعمل فهو باطل الأباطيل وقبض الريح ، وليستأثر به كله أو بعضه من شاء ، فهو فى نهاية الأمر هباء صائر إلى عفاء . . .

ومن عاش المحبة لم يعنه أمر الدنيا ولم يبال ما يكون فيها من جور وبغى ، وإن أحزنه ما يمثلة الجور والبغى من مسخ فى الطبائع .

ولئن كان قيصر — مع تقدم التاريخ — يقترب من صورة الخادم العام فى كثير من أصقاع الأرض ، فما احرى العالم أن يصبح مكانا للاخاء لا للعداء . . .

وذلك هو الأمل الكبير :

أن يكون خير الجميع غاية كل إنسان من اهتمامه وسعيه ، وأن يكون قيصر خادم الجميع ، وبذلك يقترب العالمان من الاندماج بعد طول الازدواج ، ويكون الخير العام غاية السعى لدى الناس حاكمين ومحكومين .

عندئذ يكون قيصر نفسه لله .

وتكون أعطيت الله إذ أعطيت قيصر .

ويكون العالم حقلا يتبارى الكل فى العمل بة لخير الكل ، ويحل التعاون والمحبة الأخوية الإنسانية الشاملة محل العداء والجور والتناحر . . .

ولمثل هذا فليعمل العاملون . . .

مصر الجديدة　　　　　　　　　　دكتور نظمى لوقا

تم بحمد الله

مؤلفات أخرى

الدكتور نظمى لوقا

الله في نظر الناس وكما أراه	١٩٣٦
المغتصبة (رقيق الأرض)	١٩٣٦
حيات الغول (حياة مخبونة)	١٩٣٦
الحرية	١٩٣٨
أشباح والمقبرة (شعر)	١٩٣٨
كنت وحدى (شعر)	١٩٣٩
الله أساس المعرفه والأخلاق	١٩٤٥
الفن والتفرد	١٩٤٦
آكله النيران	١٩٤٧
عذراء كفر الشيخ	١٩٤٧
دفاع عن العقل	١٩٤٨
الحقيقة	١٩٤٨
المخمور	١٩٥٢
المحترف بين الشك واليقين	١٩٥٧

محمد الرساله والرسول	١٩٥٨
محمد فى حياته الخاصة	١٩٥٩
فرويد يفسر احلامك	١٩٦١
أبو بكر حوارى محمد	١٩٦٨
عمرو بن العاص	١٩٧٩
الله والإنسان والقيمة	١٩٧٦
نحو مفهوم إنسانى للإنسان	١٩٧٥

(الكتابان الأخيران هما مذهب المؤلف الفلسفى المسمى الفلسفة التعبيرية)

رقم الايداع بدار الكتب ٧٨/٣١٥٠
الترقيم الدولى ٢ ـ ٣٦ ـ ٧٢٩٩ ـ ٩٧٧

دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩

الثمن ٧٠ قرشا

دار غريب للطبـــاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩